

تمّ نشرُ هذا الكتابِ ضمنَ سلسلة
توصيل المعرفة

تقديم

لا أتوحي من هذا الكتاب سوى تقديم مجموعة من المعارف الضرورية والمفاهيم الأساسية للسميائيات. وقد حاولت جهد المستطاع أن أكون أميناً في نقل وتعريب النصوص المعرّفة بهذا العلم ومفاهيمه وأميناً للتعبير العربي رغم وفرة المصطلحات الأجنبية التي تطلب مني وضعها بعض الاجتهاد، فعسى أن أكون موفقاً فيما اخترته.

وإذا كنت قد حاولت عرض أهم الاتجاهات السيميائية — رغم صعوبة بعضها وأخص بالذكر سيميوطيقا بورس Pierce — وأهم المفاهيم والأدوات، فإنني حاولت إبراز اتجاهين بخستهما الثقافة العربية حقهما وهما: سيميوطيقا بورس وسيميوطيقا الثقافة المستفيدة من رمزية كاسيرر.

وبجانب النظريات السيميائية ومفهوم الدليل والتواصل والاحبار والدلالة والبرجعة والأنساق الدلالية، وفي سياق عرض الاتجاهات السيميائية، عرضت لمشكل الدلالة والمرجع منتهاً إلى تبني وجهة نظر سيميائيات الثقافة في معالجتها لهذين الأمرين.

ورغم أن الكتاب يبدو عرضاً لأفكار واتجاهات مختلفة، فإن في طيّاته سيميائيات تنقد نفسها باستمرار، وتعيد بناء أسسها ومفاهيمها وأدواتها بعيداً عن أية نظرة ميتافيزيقية أو مثالية. فإما أن تكون السيميائيات نقداً للواقع ولنفسها، باعتبارها جزءاً من هذا الواقع، وإما ألا تكون. ولعل أهم ما يترتب عن ذلك، بالنسبة إلى هذا العلم، تداخله مع عدة مجالات معرفية، وبالتالي إعادة السيميائيات إلى موقعها الطبيعي ضمن مجموع النشاطات الفكرية للإنسان متجاوزة بذلك ما قد يُلصقُ بها من هيمنة و«توسعية».

الطبعة الأولى 1987
جميع الحقوق محفوظة

وإذا كانت السيميائيات «علما من بين العلوم» أو «العلم كله» أو «نقدا للعلم ولايديولوجيات» في منظور بعض الاتجاهات السيميائية ، وإذا كانت قد مورست وفق هذه التصورات الثلاثة في الغرب ، فإنها ما تزال في وطننا العربي بعيدة عن أن تناسب أي تصور من هذ التصورات الثلاثة لأنها لم تعالج بعد مجموعة من الميادين ولم تنطلق من أرضية علمية ومعرفية شمولية كتلك التي ينطلق منها السيميائي الإيطالي أمبرطو إيكو Umberto Eco .

فعسى أن نطعم السيميائيات النظرية بسيميائيات تطبيقية تطال مختلف أوجه حياتنا.

حنون مبارك

1987 - 7 - 20

تأليف الحبيب السيميائي في الوطن
الزبي (أ) صرود 1987
سنة صدور الرسالة (10)

الفصل الأول

التواصل والدلالة والبرمجة

1. مفهوم الإخبار : Informatisation

1.1. الإخبار وعناصره

عادة ما نسند إلى لفظة «إخبار» ، في الاستعمال ، عدة دلالات مختلفة. ولكي نقرب من تفسير كيفية استنباط الاستعمالات المختلفة لهذه الكلمة واستعمالاتها العلمية والتقنية يرى روني طوم René Thom أن التحليل البنيوي للمفهوم المتداول للإخبار يمكنه أن ييسر علينا هذا الأمر.

هكذا ، يتوصل روني طوم إلى أن خطاطة سيرورة الإخبار والاستخبار تشتمل على ذاتين أي فاعلين actants : مستخبر demandeur ومُخبر donneur . ويكون المستخبر في حالة جهل تام تمنعه من الفعل بينما يملك المخبر إمكانات سد الحاجة التي يعاني منه المستخبر. ويلاحظ روني طوم أن هناك فاعلا موسوماً actant marqué ويتعلق الأمر بالرسالة message التي يوجهها المخبر إلى المستخبر ، كما يلاحظ أن دلالة لفظة إخبار تتبأر على هذا الفاعل. أما الأشياء المتبقية فتشكل هالة من الاقتضاءات التي تحيط بهذه النواة التي كَوَّنَهَا نقل الرسالة من المخبر إلى المستخبر.

من هنا ، يخلص روني طوم إلى أن هذا التعقيد هو الذي يفسر عدم الاستقرار الدلالي لكلمة إخبار ، ذلك أن الذهن ، نظرا لعجزه عن تصور سيرورة في مثل هذا التعقيد ، ينزع إلى أن يطرح جانبا هالة الاقتضاءات كليا أو جزئيا هادفاً من وراء ذلك إلى تبشير النواة. وقد أفضت به هذه الخلاصة إلى القول بأن التغييرات التي تلحق بمعنى الإخبار تتعلق ، في الجوهر ، بجزء من المقتضيات التي تم إلغاؤها (1).

اعتماد على هذا التحليل البنيوي ، يعالج روني طوم الاستعمالات المختلفة لكلمة إخبار ، فيقف عند المعاني غير التقنية لهذه الكلمة :

1 — المعاني المحصل عليها بواسطة الالغاء التدريجي للمستخبر : ويتعلق الأمر هنا بمعنى الإخبار في القضاء. إذ يُجْعَل من المستخبر ، في هاته الحالة ، كيانا جماعيا وفئة اجتماعية يتوحد فيها المتكلم باعتباره عضوا فيها ، وبذلك يُعَدُّ المستخبر. وهذا هو ما يحدث في الاستعمال القضائي للفظ «إخبار». إن ، في هذه الحالة ، نوعاً من الالغاء للمتلقى ، الشيء الذي يُعَدُّ طبيعياً لأن المستخبر والمتلقي يشكّلان ذاتاً واحدة. وقد تتمحور الدلالة حول الخبر حينما تُنْتَزَعُ منه معلومات عن طريق أشكال عنيفة كالتهديد والتعذيب. وتلك هي حالة الإخبار بالمعنى البوليسي أو بالمعنى التجسسي.

2 — الإخبار بالمعنى الصحفي : وفي هذه الحالة ليس هناك استخبار بالمعنى الدقيق إذ يعتمد الصحفي الى اختلاق الاستخبار أو افتراض وجوده. ويؤدي ذلك الى تنوع كبير في المحتوى الدلالي للإخبار.

3 — الإخبار بمعنى تقنيات الاشهار : الإخبار ، في هذه الحالة ، مفروض على المتلقي الذي لم يطلبه. أما محتوى الإخبار ، فهو أكثر إفادة للمخبر منه الى المتلقي. (2). وبخصوص الاستعمالات العلمية لكلمة «إخبار» ، يستعرض روني طوم معنى الإخبار في نظرية الإخبار عند شانون Shannon وويفر Weaver ، ويستعرض كذلك استعمالات هذا المصطلح في البيولوجيا :

1 — الإخبار عند شانون وويفر : إن نظرية الإخبار بالمعنى التقني تعتبر ، في الواقع ، نظرية للتواصل. وتُلغى ، في هذه النظرية ، كل الاقتضاءات ولا يُحْتَفَظُ إلا بـ : المصدر Source والرسالة والمتلقي ؛ بل إنه يتم ، بالتدقيق ، استحضار قناة للتواصل. وتسعى هذه النظرية الى مقارنة بنية الرسالة المتلقاة بالرسالة المبتوثة (أثر الضوضاء bruit على العلامة Signal).

2 — استعمالات مصطلح إخبار في البيولوجيا : ويتعلق الأمر هنا ، في الجوهر ، بالإخبار «الوراثي» لنوع حي. ويقترح روني طوم تأويلين لذلك : يرى أولهما البويضة بوصفها رسالة بعث بها أحد الأبوين ، أما المتلقي فهو الجنين النابع من البويضة ذاتها ؛ وعليه ، فإنه يتوجب علينا أن نعتبر أن متلقي الرسالة هو الرسالة. وواضح أنه من الصعب دعم مثل هذه النظرة. أما التأويل الثاني فيعتبر العضوية الحية مخبراً ، بينما يعتبر المتلقي هو نفس الملاحظ. وتعبير أدق ، فإننا نعتبر أن أية مورفولوجيا morphologie طبيعية هي بمثابة رسالة قد بعث بها مصدر وهمي الى العالم (بكسر اللام) الذي هو المستخبر. ولا تبدو الغاية

من هذه العملية بوضوح إلا إذا افترضنا وجود المنفعة التي يحصل عليها الانسان والمتمثلة في معرفة ما يراه ويلحظه (3).

وفي الأخير ، يؤكد روني طوم أن فكرة الإخبار تضرر وجود مستخبر يستفيد من معرفته للإخبار ، كما تضرر وجود مخبر يمد السائل بالإخبار ، عموماً ، عن طيب خاطر. إننا حينما نعجز ، من خلال كل استعمالات كلمة «إخبار» ، عن تحديد هذه العناصر الأربعة : مستخبر واستخبر ومخبر ومنفعة يتوصل بها المستخبر من خلال معرفته للإخبار ، فإنه ينبغي ، فيما يتعلق باستعمال هذه الكلمة ، أن نكشف عن انحراف ما : وتلك حالة الاستعمالات التي لا يظهر فيها الاستخبار والتي لا يتوفر فيها الإخبار على منفعة أو على منفعة كافية بالنسبة الى المتلقي. فالصحفي ، مثلاً ، يضيف على معنى الكلمة انحرافات غير مقبولة مثلما هو حال الدعاية.

أما في الاستعمالات العلمية ، وخاصة في البيولوجيا ، حيث يتم إقصاء المستخبر أو المخبر — المصدر ، فإن الانحرافات ، إذا حصلت ، لا تعدو كونها انحرافات متصلة بما هو ثقافي. ذلك أن استعمال كلمة «إخبار» ، في حالة «الإخبار الوراثي» ، قد تستخدم لإخفاء الجهل الشبه التام بالعمليات المورفو — وراثية. وبهذا المعنى ، فالإخبار هو شكل العِلِّيَّة الغامض (4).

يتضح ، من خلال هذا التشریح للإخبار ، أن للإخبار أربعة عناصر هي : المستخبر والاستخبر والمخبر والمنفعة التي يجنيها المستخبر من الخبر. وفي حالة تحقق هذه العناصر الأربعة ، يمكن الحديث عن المفهوم الأمثل التام للإخبار. غير أن مثل هذا المفهوم قد يكون عرضة لمجموعة من الانحرافات الناتجة عن الأسباب التالية :

— غياب المستخبر أو غياب الإخبار ،

— غياب المتلقي أو المخبر ،

— انعدام المنفعة بالنسبة إلى المستخبر ،

— تمتع المخبر بالمنفعة ،

— كون الرسالة تصير هي المتلقي

— كون المرسل وهمياً

— كون المستخبر هو العالم (بكسر اللام)

ومن الممكن أن يضاف إلى عناصر الإخبار عنصر خامس هو القناة.

(3) نفسه ص 183 — 184

(4) نفسه ص 184 — 185

2.1. الإخبار وكيفية تشكيله

استعرض أمبرطو إيكو مفهوم الإخبار في نظرية شانون وويفر متوخيا الوقوف عند كيفية تشكيله مسجلاً، في البداية، ما يلي :

- 1 — لا دور للمدلول في نظرية الإخبار ولا يمكن أن يؤخذ بعين الاعتبار.
- 2 — الإخبار هو أكثر مما قيل، إنه ما يمكن قوله.
- 3 — يمثل الإخبار حرية في الاختيار تتمتع بها حال تشكيل الرسالة وتكوينها (5).
- 4 — توفرنا على إمكانات متعددة لتأليف العناصر وعلى عدد غير محصور من العناصر.

وأمام الإخبار المتزايد للمصدر والتوسع الكبير للاختيارات الممكنة الموجودة في المصدر قبل اختيار الحدث وبث الرسالة — أي أمام حالة من الفوضى — يلزم العمل على بَنِيَّة الإخبار الذي يتطلب الإجراءات التالية : إن نقل الإخبار الممكن مع تحديد الرسالة التامة يتطلب إدماج السِّنْ Le code الذي يقوم بوظيفة ترتيب وتنظيم، إذ بواسطة السِّنْ نُحْد من إمكانات التأليف بين العناصر كما نحصر عدد العناصر، فيتقلص بذلك إخبار المصدر ويتزايد إمكان نقل الرسائل (6).

والسِّنْ عبارة عن نسق من القواعد التركيبية الخاصة إذ يختار رموزاً ويعد أخرى، كما يضع السِّنْ قواعد دلالية. وبعبارة أخرى، إذا كان السِّنْ قد قام بانتقاء وحدات قابلة للتأليف مبعداً وحدات أخرى، بصفة تركيبية خالصة، فلأن هذه العملية تستخدم لتتيح إنجاز وظيفة دلالية.

ولأننا لا نتوخى غير الإخبار بشيء دقيق وذو أهمية، فإن السِّنْ يختار أوضاعاً غير مستمرة ومتميزة ومقطعة من امتداد الوقائع الممكنة، وهو يختارها بصفاتها وحدات مميزة للتواصل الذي يهمننا (7).

واضح أن أمبرطو إيكو قد أضاف عنصراً آخر إلى عناصر الإخبار السابقة وهو السِّنْ. إلا أن ما ينبغي كشفه هو أن الإخبار، هنا، يخص عَالَمَ العلامة Signal لا عالم المعنى sens. فإذا تعلق الأمر بالآلة، فإننا لا نمثل إلا للمتطلبات التالية :

أ — وجود مصدر فيزيقي لأحداث ممكنة انتقى من بينها السِّنْ بعض الأحداث التي ارتآها مميزة.

ب — الجهاز المستقبل عبارة عن آلة تستجيب بشكل أحادي للرسالة المتلقاة.

ج — اشتراك المرسل والمتلقي في سنن واحد، وهو سنن بسيط جداً.

د — لا تضع الآلة، باعتبارها مرسلًا أو متلقيًا، السِّنْ موضع تساؤل وشك ونقاش (8).

أما إذا تعلق الأمر بالإنسان، فإن المتطلبات تصبح هي التالية :

أ — يتوحد المصدر والمرسل، كما يتوحد، إلى حد ما، المرسل والسِّنْ.

ب — نستبدل الآلة المستقبلية بالإنسان، فننتقل بذلك من عالم العلامة إلى عالم المعنى.

ج — يتعدد السِّنْ ولا تصير الأنواع السننية Les codes مشتركة بين المرسل والمتلقي. وفي هذه الحالة، تصبح الرسالة مصدرًا للإخبار.

د — نفترض أن المرسل والمتلقي قد يضعان السِّنْ، في بعض الحالات، موضع تساؤل ونقاش (9).

لكن، كيف ننتقل إلى عالم المعنى ؟ وما الذي يحدث آنذا ؟ إننا ننتقل إلى عالم المعنى حينما نستبدل الآلة المستقبلية بالإنسان متلق، فنفتح، آنذاك، سيرورة دلالة لأن العلامة تصير شكلاً دالاً ينبغي على الإنسان المتلقي أن يملأه بمدلول معين. وإذن، فإن الإنسان المتلقي يسند معنى معيناً إلى العلامة. ويطلق أمبرطو إيكو على سنن الإنسان المتلقي سنناً وضعياً Code dénotatif. إلا أن هذا المتلقي الإنسان ينبغي له أن يحصل أيضاً على سنن آخر مُعَدَّة انطلاقاً من السِّنْ الأول، وذلك حينما يصبح المدلول الوضعي، بدوره، دالاً ذا مدلول. وهذا المدلول الثاني هو المدلول الإيحائي للمدلول وضعي مضمّر. غير أن المتلقي الإنسان يمكنه أن يحصل على سنن إيحائي آخر. وهذان السننان الإيحائيان لايلغي أحدهما الآخر، إلا أنهما يشتغلان بالتناوب حسب المقام الذي يوجد فيه هذا المتلقي الإنسان (10).

هكذا يستحضر أمبرطو إيكو مفهوماً جديداً هو مفهوم المقام الذي يتم في إطار التواصل. والمقام هو السياق الخارج سيميوطيقي extra-Sémiotique الذي يحدد اختيار سنن بدل سنن آخر (11).

إن أمبرطو إيكو يخلص بنا إلى أن هناك وجوداً لِسَمَنٍ وضعي أساس مُطَعَم بأنواع سننية صغرى اختيارية في الغالب يمكن اعتبارها كأنواع سننية فرعية Sous-codes. والسِّنْ وسلسلة الأنواع السننية الفرعية جزء لا يتجزأ من الممتلكات المعرفية للمُبلِّغ، وتتحكم في هذه الأنواع

(8) نفسه ص 54

(9) نفسه. نفس الصفحة.

(10) نفسه. ص 55 — 57

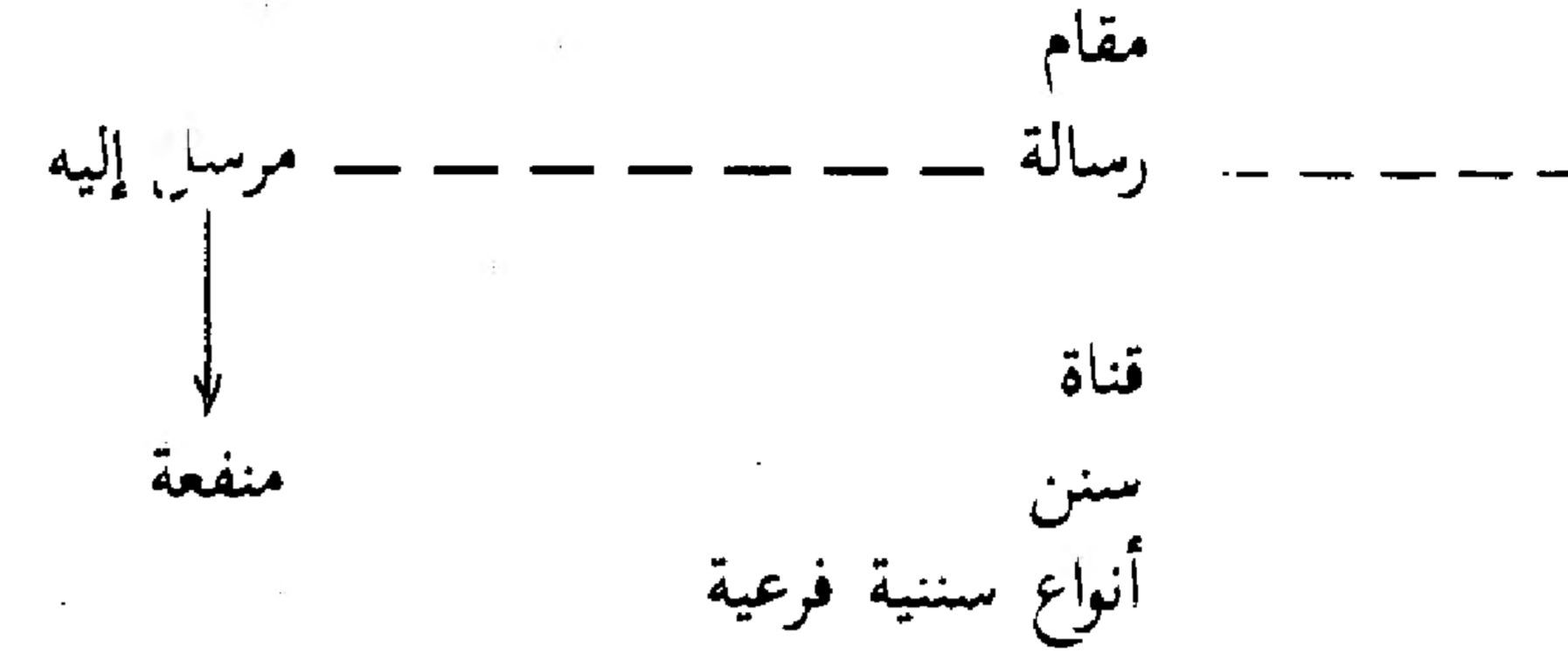
(11) نفسه ص 57

(5) La Structure absente. P. 46 — 47

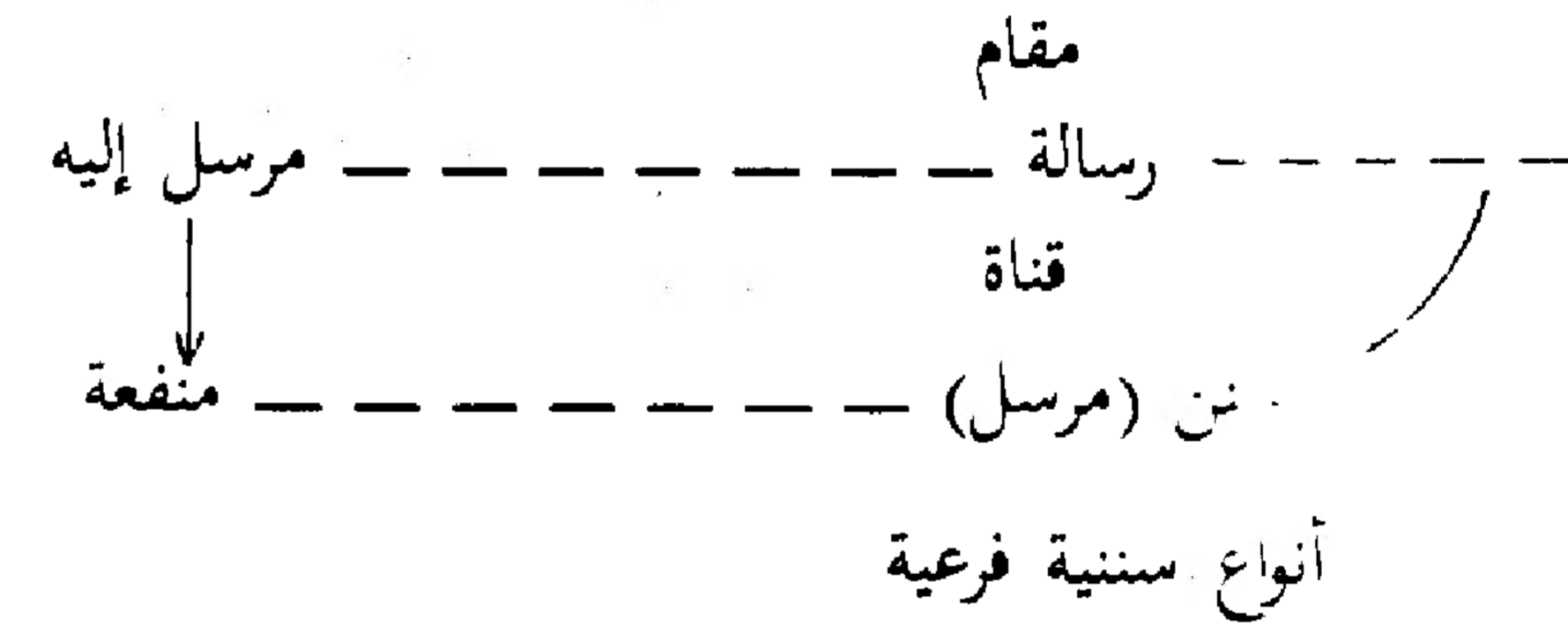
(6) نفسه ص 47 — 48

(7) نفسه ص 49

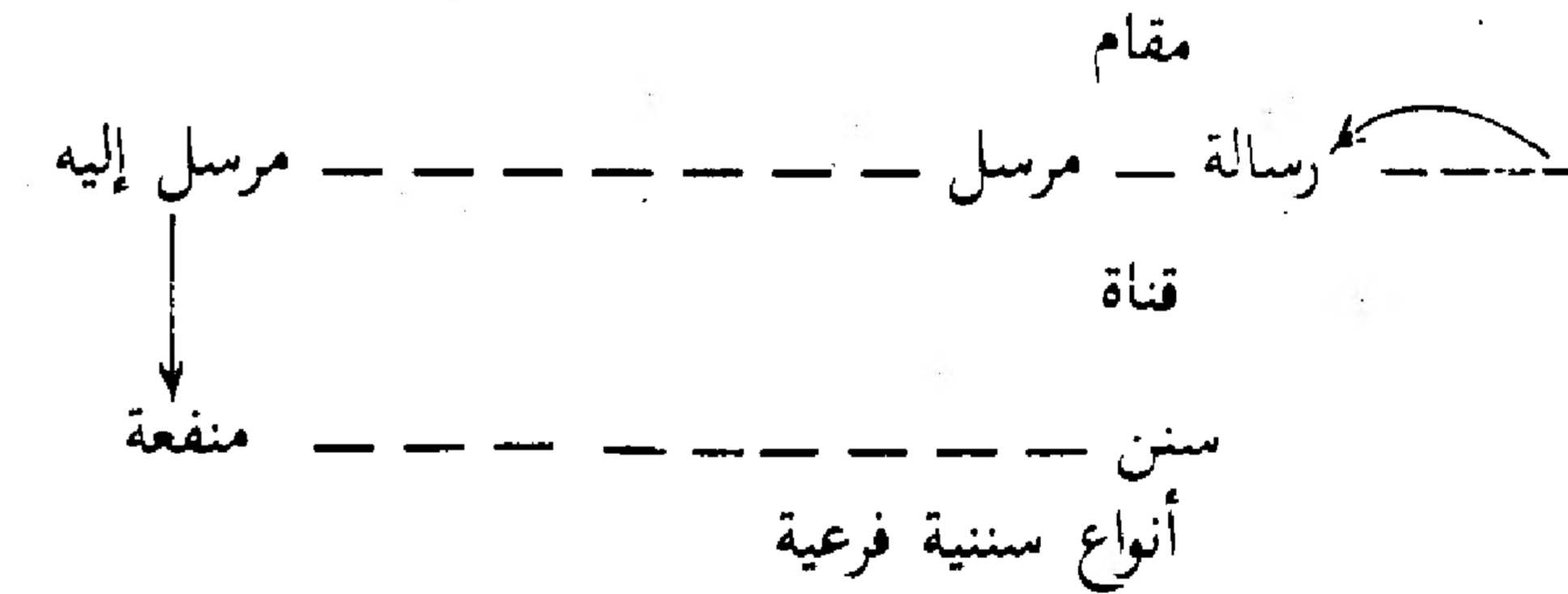
الخطاطة الثانية



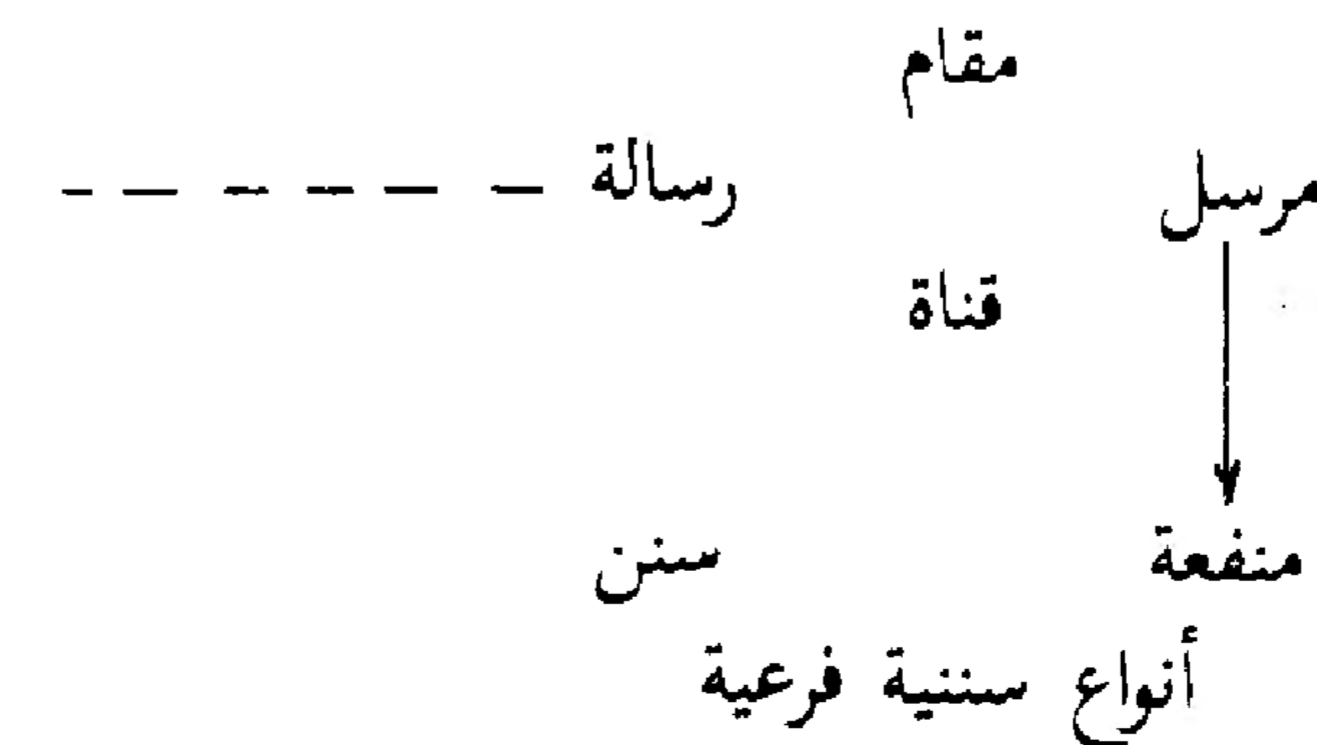
الخطاطة الثالثة



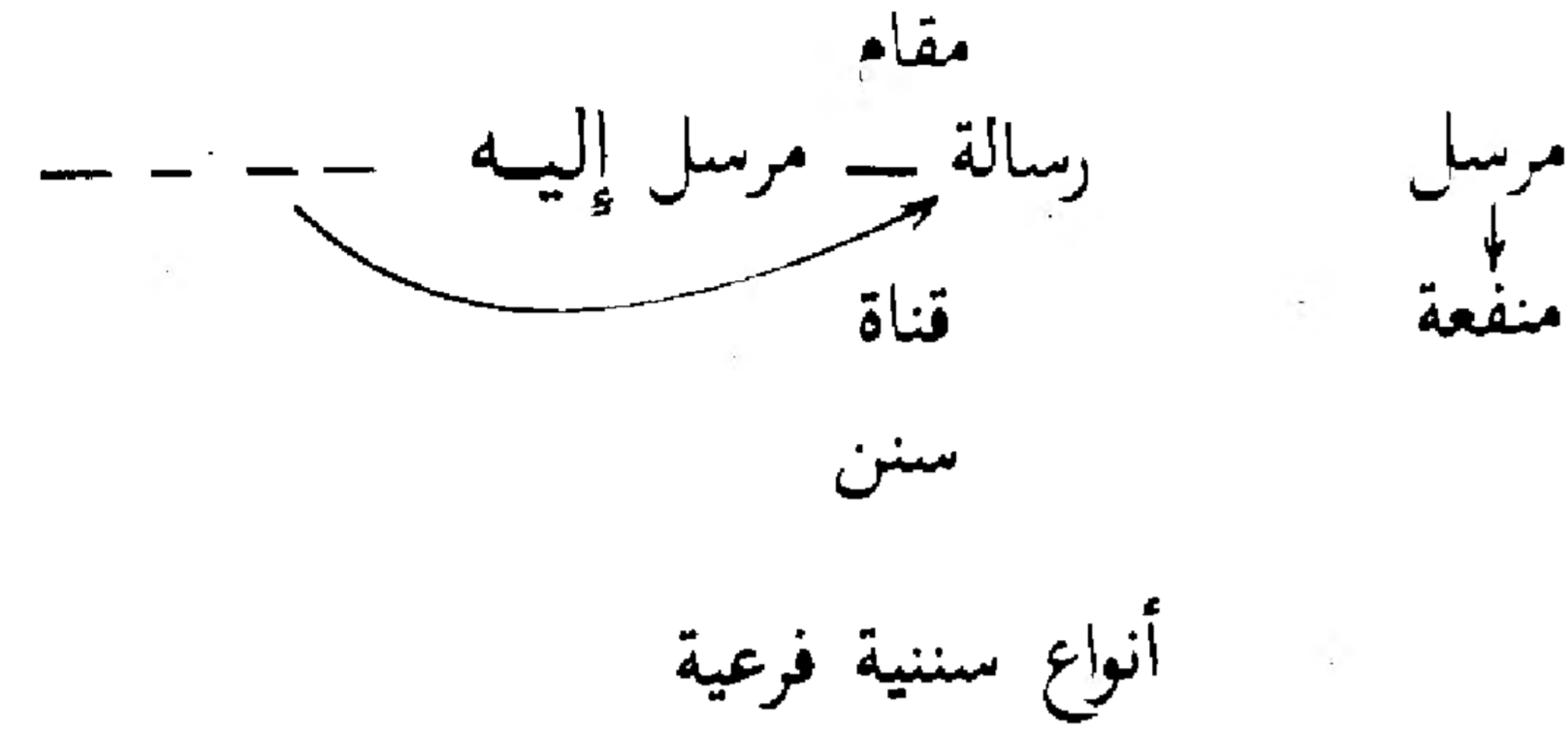
الخطاطة الرابعة



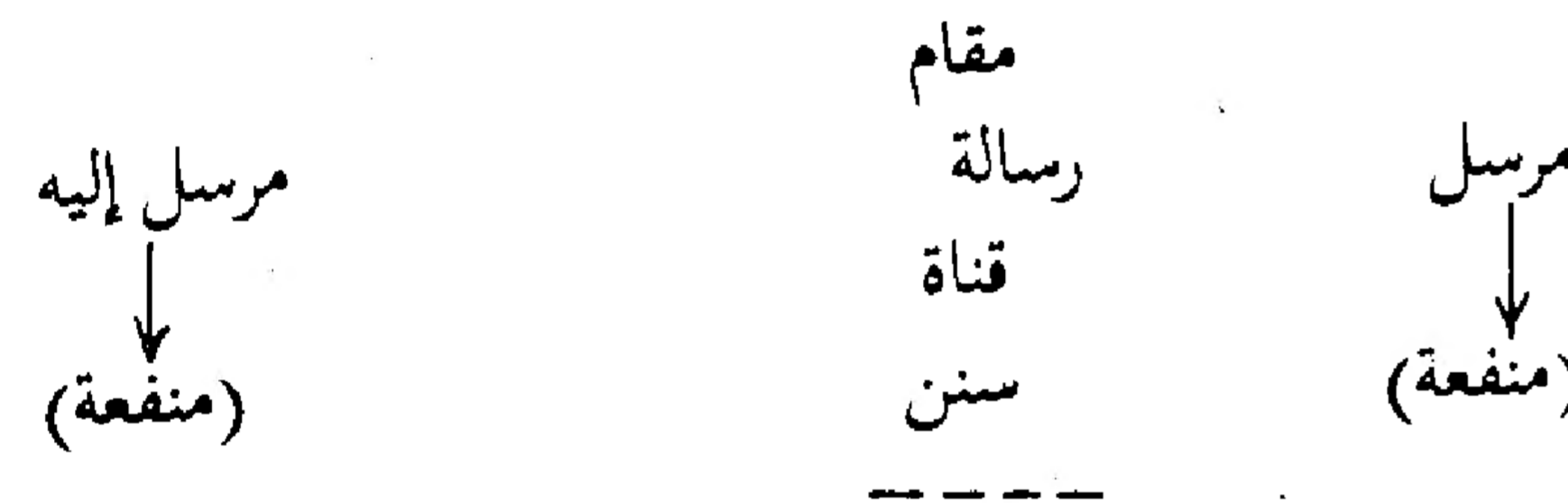
الخطاطة الخامسة



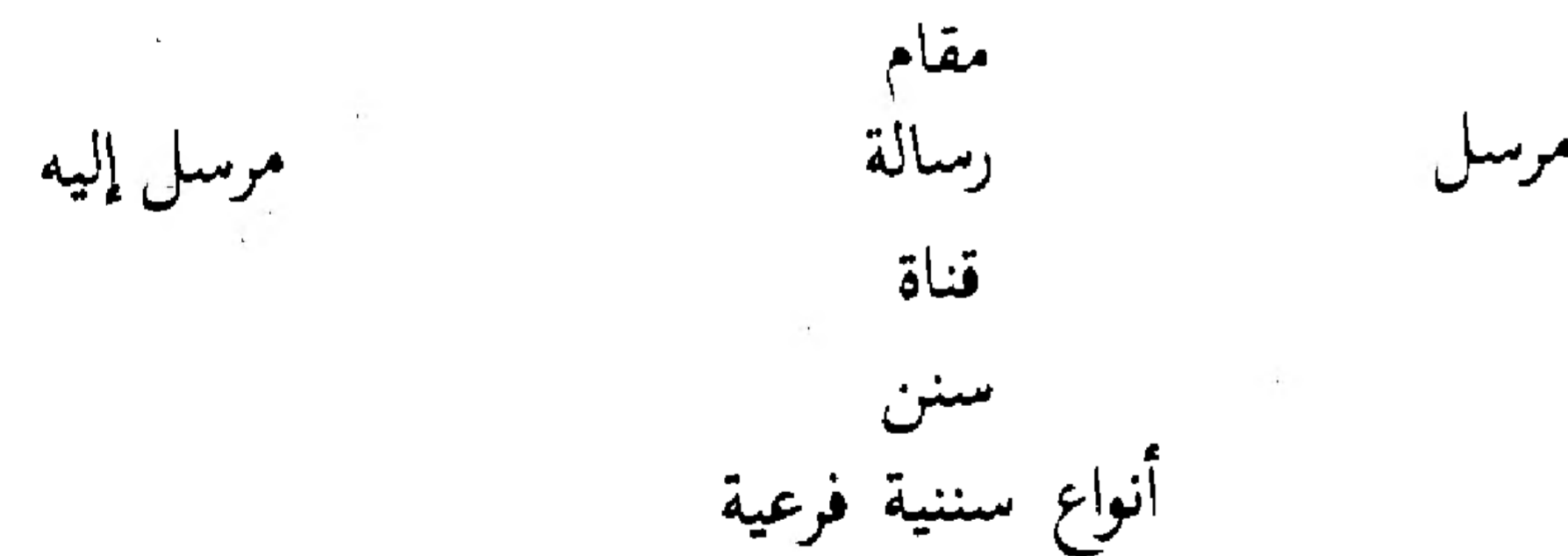
الخطاطة السادسة :



الخطاطة السابعة :



الخطاطة الثامنة :



ملحوظة : المنفعة متبادلة بين المرسل والمتلقي

يتبين من هذه الخطاطات الثمانية أن للاخبار بنيات مختلفة يبلغ عددها ثمان بنيات تتكون من عناصر مختلفة أو عناصر تلعب أدوارا محددة أو تلعب عدة أدوار. ورغم ذلك ، فإن الاخبار والتواصل لا يختلفان.

وتأخذ هذه الخطاطات والبنيات في حسابها التعقيد الذي يلزم عملية الاخبار والتواصل ذلك أن هذه العملية ، كما اتضح ذلك ، ليست بالبساطة التي قد نتوهمها ، وإنما هي عملية معقدة بالنظر إلى علاقات التداخل بل التمازج وعلاقات الاقصاء بين عناصر بنية الاخبار الكبرى. ومن جهة ثانية ، فإن هذه البنيات الأساسية التي وقفنا عندها تتلاءم ومختلف الأنساق الدالة سواء كانت لفظية أم غير لفظية ، وسواء كانت اجتماعية أو طبيعية.

2. التواصل و الدلالة والبرمجة

1.2. التواصل والدلالة

يمكن أن ننظر إلى العمليات التواصلية من منظارين اثنين. فنعرّفها باعتبارها نقلاً للعلامة من المصدر إلى المرسل إليه : وإذا تعلق الأمر بعملية بين آتين (من آلة إلى أخرى) ، فإنه ليست للعلامة قدرة التدليل. وفي هذه الحالة ، فإنه لا يمكننا الحديث عن الدلالة ، إلا أن لدينا نقلاً لأخبار ما. أما إذا كان المتلقي إنساناً (وليس من الضروري أن يكون المصدر أو المرسل إنساناً) ، فإن الأمر يتعلق بسيرورة دلالة لأن العلامة تثير استجابة تأويلية لدى المخاطب (15).

وعليه ، فالتواصل الإنساني لا يخلو من الدلالة ، فالسنن ، كما يرى أمبرطو إيكو ، نسق دلالة ذلك أنه حينما يعرض شيء ما ماثلاً في إدراك المخاطب شيئاً آخر ، فإن الأمر يتعلق بالدلالة (16).

إن التواصل ، إذن ، نقل فعال للمعنى والأخبار ، وهو يحتوي دوماً على رسالة ، وكل رسالة تتكون من دلائل ، وكل دليل يتكون من دال ومدلول. وعلى أساس التذكير بمكونات الرسائل ، يصح أن نقول مع شيرّي C.Cherry (17) : «لا يوجد تواصل بدون نسق مكون من دلائل» ذلك أن كل ما يفهمه التواصل الإنساني هو عبارة عن تبادل لدلائل» كما يرى روسي — لاندي F.Rossi-Landi (18). وبهذا لا يمكن للتواصل إلا أن يكون دالاً بحيث إن هناك علاقة وثيقة بين المعنى والتواصل إذ لا يمكن أن نعرف الكلمة الأولى إلا انطلاقاً من الكلمة الثانية (19). ولربما لهذا السبب بالذات ، اعتبر شانون وريفر تعريفهما للتواصل شاملاً اللغة المكتوبة والمنطوقة والموسيقى والفنون التشكيلية والمسرح والرقص ، أي أن التواصل يشمل ، عملياً ، كل السلوك الإنساني (20).

يبدو ، إذن ، أنه يستحيل الحديث عن تواصل خال من سنن ومن رسالة لأن السنن والرسالة يوجدان في علاقة جدلية وثيقة. كما أن كل عملية تواصلية هي بمثابة تبادل للدلائل بين مرسل ومرسل إليه داخل سوق لفظية أو غير لفظية. وبعبارة أخرى ، فإنه مثلما هو مقدر علينا تبادل البضائع ، مقدر علينا أيضاً تبادل الدلائل أي التواصل. بل إن المعنى لا يتحدد مالم نتواصل ، ويعني ذلك أن التواصل يحدد المعنى ويميزه. ولهذا السبب ، فلا مجال ،

هنا ، للفصل بين التواصل والدلالة. وفي هذا المعنى ، يرى أمبرطو إيكو أن كل فعل تواصل موجه إلى كائنات إنسانية أو محقق بينهما... يفترض نسق دلالة كشرط ضروري له (21). وضمن نفس السياق الفكري ، يمكن أن نذهب إلى أبعد من ذلك فنقول إن لأي سلوك إنساني معنى ، فيكون كل جزء من السلوك الإنساني ، تبعاً لذلك ، كما يرى روسي — لاندي ، تواصل (22) ، خاصة وأن السلوك الذي لا معنى له سلوك لا وجود له بما أن الإنسان يتواصل مع منظومته الاجتماعية (23).

ومن المعلوم أن كل سلوك يوجد داخل ثقافة معطاة في شكل متواليات أو تجمعات من الوحدات الثابتة والتعاقدية ، وهذا ، بالضبط ، لأن هذه الوحدات ذات معنى (24).

وإذا كانت الثقافة تحدد السلوك ، وإذا كان السلوك الإنساني سلوكاً تواصلياً ، فإن التواصل هو العملية المركزية والمكونة لكل ثقافة كما يرى فرانز بواس Franz Boas (25). ويجدر بنا ، في هذا الباب ، أن نشير إلى أن السلوك الإنساني هو حصيلة للعمل الإنساني المنجز عبر مختلف المراحل التاريخية لتطور الإنسان. ومن البين أن هذا العمل الإنساني السابق الذي يستخدم السنن هو ، قبل كل شيء ، عمل اجتماعي وجماعي بحيث لا يصبح أي فرد عضواً في الجماعة إلا في الحالة التي يقبل فيها ما أنتجته تلك الجماعة ، كما لا يصبح عضواً في هذه الجماعة إلا في الحالة التي يعرف فيها تلك الانتاجات (26). وبعبارة أخرى ، إن الإنسان ينتمي إلى نسق دلالي خاص ، وهو لا يكتسب التعلم والاستعمال إلا عندما يصير جزءاً من شبكة الأنساق الدلالية التي توجد في جماعة بشرية معينة وتعمل فيها.

ولعل ذلك يعني أن التواصل اللفظي وغير اللفظي يتوقف ، على وجه الخصوص ، على مورفولوجية سلوكية مشتركة. يقول روسي — لاندي في هذا المعنى : «إن التواصل بنوعيه اللفظي وغير اللفظي يتوقف على مورفولوجية سلوكية مشتركة متوفرة فينا لأننا ، في الحقيقة ، ننتهي ، بصورة عامة ، إلى أنساق دلالية واحدة» (27) ، أي تلك الأنساق التي يندمج فيها كل فرد منا منذ ولادته.

2.2. البرمجة

إن مختلف هذه الأفكار تقودنا إلى النقطة المحورية في تفكير روسي — لاندي وهي فكرة «البرمجة» programmation. ذلك أن التواصل ، عنده ، إنجاز للبرامج ، فهو يقول في

La structuse absente P.9 (21)

(22) نفس المرجع السابق ذكره. ص 24

(23) نفسه. ص 16

(24) نفسه ص 26

(25) نقلاً عن روسي — لاندي. ص 24

(26) نفسه ص 27

(27) نفسه ص 28

Eco. A Theory of Semiotics P.8 (15)

(16) نفسه. نفس الصفحة

(17) نقلاً عن روسي — لاندي P. 11 Rossi-landi : Linguistics and Economics

(18) نفس المرجع السابق ذكره. ص 9

Lyons. Eléments de Sémantique P.33 (19)

(20) نفسه. ص 31

هذا الباب : «إن القول بأن كل جزء من السلوك هو سلوك له معنى يناسب ، إذن ، القول بأن كل جزء من السلوك هو برنامج في حالة التحقق وإنجاز لبرنامج قد أُعيد سلفاً. ففي كل تفاعل أي في كل عملية اجتماعية يؤثر خلالها فردان أو أكثر على بعضهم البعض أو تؤثر خلالها جماعات على بعضها البعض بصفة متبادلة بواسطة أنماط مختلفة من الرسائل ، فإنه يمكن للبرنامج الذي يسند هذا التفاعل أن يُشخص (يُفرد). ويقدم البرنامج ، في آن واحد ، وصفة للأدوار الفردية أو الجماعية ولللاقات التي أقيمت بين منجز البرنامج على اختلافهم» (28). ويقول أيضاً : «وقد تم الدفاع عن اعتبار العوامل الطبيعية مستقلة أحياناً عن عملية التشكل الاجتماعي ، مع بقايا طبيعية أو وضعية. وقد تم الدفاع عن عملية التشكل الاجتماعي ، مع بقايا روحية ، باعتبارها كانت مجموعة من العمليات الإبداعية ، أي أن هناك فجوة بينها وبين الطبيعة. أما الآن ، ولأن أنساق الدلائل الاجتماعية هي ، بالتحديد ، نتائج إنسانية ، فإنه ، ليس ممكناً ، بالتأكيد ، العثور عليها في الطبيعة كأنساق منفصلة عن الاجتماعي ؛ ومن جهة أخرى ، ولأنها تعمل كآلات مكيفة لسلوكنا ، فإنه ليس من الممكن أيضاً العثور عليها داخل عمليات نمط إبداعي معين. إن التناقض ينتهي ويشعر الطبيعي في الالتحاق بالاجتماعي حينما نتأكد من أن الإنسان نفسه هو نتاج لعمله (...). وفي رأيي ، فإن تلك هي أهم وسيلة لإدماج مفهوم التواصل باعتباره إنجازاً لبرنامج بواسطة أنساق دلائل اجتماعية لفظية كانت أم غير لفظية» (29).

إن السلوك الإنساني ، إذن ، بمثابة تحقيق لبرنامج ذلك أن الفرد الإنساني ليس سوى جزء من تنظيم واسع ، وأنه حينما ينشأ وينمو يجد أمامه أشياء جاهزة وتجارب محققة ، وبالتالي ، فإن سلوكه سلوك يتمحور على شيء سابق في الوجود ويتعلق به ، وهو شيء يوجهه ويتحكم فيه. وبذلك يكون السلوك مبرمجاً كما يكون التواصل مبرمجاً.

ويترب عن مثل هذا التصور أن الأنساق الدلالية تحتوي على برامج من السلوك وأن وراء كل عملية اجتماعية يشترك فيها أفراد أو جماعات برنامجاً من شأنه أن يحدد الوظائف التي يقوم بها الأفراد والجماعات وأن يُستَنَ Codifier العلاقات بين هؤلاء الأفراد أو هاته الجماعات. كما أن الإدراك الحسي للعالم المادي لدى الإنسان إدراك مبرمج بواسطة الأنساق الدلالية اللفظية وغير اللفظية التي يتواصل بها مع بني جنسه ، إنه ، على وجه التدقيق ، إدراك تبرجه الثقافة.

ويعني ذلك أن الإنسان ، حينما ينجز أي برنامج ، يكون مزوداً بتعليمات. لذا يمكن اعتبار إنجاز البرنامج تواصلاً. وعلى هذا الأساس يكون محكوماً على الإنسان بأن يتعلم كيف

(28) نفسه ص 26

(29) نفسه ص 25 - 26

ينجز البرامج ، وتعلّم إنجاز البرامج يجعل الإنسان يتعلم كيف يتواصل ويساهم في عملية إعادة الانتاج الاجتماعي. بل إن الإنسان ، كما يرى إيفانوف Ivanov ، يصبح جزءاً من البرامج التي تحدد سلوكه بطريقة آلية أي بطريقة لا واعية بالنسبة إلى ما يتبقى من حياته (30).

إن التفاعلات بين الأفراد وداخل الجماعة لا يمكن لها إلا أن تكون مبرجة لأن السلوك الإنساني سلوك قابل لأن يفهم وقابل لأن نتنبأ به (31). هكذا ، تبدو عملية التفاهم بين الأفراد عملية لا تتحقق إلا وفق برامج معينة ، ويتضح أن الإنسان لا يصبح عضواً في جماعة معينة إلا في الوقت الذي يكون فيه فاعلاً داخل أنساق دلالية مختلفة إلى درجة يصح معها القول ، كما أكد ذلك روسي — لاندي ، بأن هذه الأنساق الدلالية لن توجد بدوننا نحن الأفراد الذين نفعل في العمليات التواصلية ، إلا أن العكس صحيح أيضاً ، إذ لا يمكن أن نوجد كأفراد ما لم تكن هناك أنساق دلالية نكون نحن منجزها (32).

لكن ، أعني ذلك أن للبرامج سلطة قاهرة تنتفي معها حرية الإنسان ؟ ألا نشعر ، ونحن نقوم بإنجاز برامج ، بأننا عبيد لقواعد محددة ؟

يجيب روسي — لاندي عن ذلك معتبراً الحرية ابتكاراً إنسانياً ، وإذن ، فهي ذاتها تتركز على التواصل أي تتركز على البرامج : فإذا انعدمت البرامج ، فإننا لن نجد أنفسنا حينئذ ، على وجه الإطلاق ، في أي شرط من تلك الشروط التي نسميها حرية ، بل إننا لن نجد أنفسنا قادرين على إدماج الحرية الجديدة في التاريخ. والتحرر ، في حقيقة أمره ، عبارة عن توسيع للتخطيط الإنساني ، والتخطيط هو الاستعمال الواعي للبرامج. وعلاوة على ذلك ، فإن البرامج نفسها يمكن لها أن تتنبأ بحجم الحرية في شكل اختيارات أو تنوعات مشروعة (33).

إن الأنساق الدلالية نتاج لعمل الإنسان ، والإنسان ذاته من نتاج عمل نفسه. وتقوم هذا الأنساق بوظيفة تواصلية وترسيخ للسلوك والثقافة. ومن ثمة ، فهي شبكة تؤثر عمل الإنسان وممارسته الاجتماعية مهما اختلفت أنواعها وأبعادها. إلا أن الإنسان ، رغم ذلك ، فاعل فيها. ويعني ذلك أنه يتموقع بين قيد الحرية وقيد الضرورة ، إذ لا بد من برامج لتحقيق الحرية ذلك أن انتفاء البرامج يعني السقوط في الفوضى. وعليه ، فإن الحرية تعتمد ، في جوهرها ، على البرامج. ومن جهة ثانية ، فإن للإنسان تخطيطاً قابلاً لأن يوسع مجاله بفضل حضور التحرر ، إلا أن ذلك التخطيط مرتبط هو ذاته بالبرامج لأنه الاستعمال الواعي لها. فبدون حضور الوعي أثناء إنجاز البرامج يُفقد التخطيط الإنساني إذ لا يمكن أن تُخطط بدون ضوابط وقيد.

(30) نقلاً عن روسي — لاندي ص 27

(31) نفسه نفس الصفحة

(32) نفسه ص 28

(33) نفسه ص 28 - 29

لا شك أن مثل هذه الآراء حول علاقة التواصل بالدلالة وبالبرمجة تدفعنا إلى اعتبار المدلول وحدة ثقافية ليس إلا ، كما يرى ذلك أمبرطو إيكو (34). ومن جهة أخرى ، فإن الاعتراف بوجود هذه الوحدات الثقافية يعني فهم اللغة باعتبارها ظاهرة اجتماعية (35). بل إن ذلك يعني اعتبار كل الأنساق ظواهر اجتماعية.

الفصل الثاني

الأنساق الدلالية

1. تعريف النسق الدال

يعرف لوكومتسيف النسق السيميوطيقي باعتباره «لعبة دلالات» — لعبة نمط من الدلائل أو عدة أنماط — مضاعفة بنسق من القواعد التي تتحكم في تأليفها في اللحظة التي يُعدُّ فيها نص سيميوطيقي (1).

بينما ينطلق روسي — لاندي في تعريفه للنسق الدلالي من اعتبار التواصل منقسما إلى عدة قطاعات تواصلية ، ويُسمَّى كل قطاع تواصل «نسق دلالات». وأنساق الدلائل ، عنده ، مجموعة جدلية مكونة من أنواع سننية ومن رسائل تتحقق في الواقع بين مرسلين ومتلقين في ظروف ملائمة. وتحتوي هذه الأنساق ، في طيها ، على قواعد استعمالها الخاص (2). أما كرانجر G.G.Granger فيستعمل ، بدل النسق السيميوطيقي ونسق الدلائل ، النسق الرمزي. والنسق الرمزي مجموعة من الدلائل المعطاة فعليا أو القابلة فعليا للبناء. ويؤكد هذا التعريف ، في رأيه ، الطابع المغلق لمجموع دلالات النسق. أما إذا بقيت قائمة النسق مفتوحة فإن الأمر لا يتعلق بنسق رمزي وإنما بتجميع لدلائل. غير أن هذا الانغلاق لا يلغي انفتاحا ما للنسق إذ من الممكن استحداث دلالات. إلا أن مثل هذا الاستحداث يخضع لبعض قواعد البناء التي تُسمَلُّمُنَا إلى قيد قابلية البناء الفعلية (3).

إن نسق الدلائل ، إذن ، مجموعة من الدلائل تنسج فيما بينها مجموعة من العلاقات الاختلافية والتعارضية حتى تقوم بتأدية وظائف دلالية متميزة بين مرسل ومتلق. ولتأدية هذا

(1) Quelques fondements de la Sémiotique générale in systèmes de signes ouv. collectif. P. 237

(2) Linguistics and Economics P.10 —11

(3) Langages et épistémologie P.103

(34) La Structure absente P.64

(35) نفسه. نفس الصفحة.

الدور المتمحور حول نقل رسالة معينة لابد من أن تخضع هذه الرسالة لقوانين وقواعد تركيبية (= تأليفية) وفق شروط مقامية خاصة.

ومن جهة ثانية، فإن هذه المجموعة من الدلائل المعطاة فعليا لابد، لكي تشكل نسقا، من أن تكون مغلقة؛ إذ لا ينبغي أن تختلط بها دلائل أخرى ذات طبيعة تغاير طبيعتها — وبالتالي لا تقيم معها أية علاقة داخلية — وذات قواعد تأليفية مغايرة لقواعد تأليف الأولى.

وإذن، فالدلائل تُرتب داخل أنساق معينة متغايرة مغلقة مثل نسق الكتابة ونسق الموسيقى ونسق الرقص... الخ. إلا أن انغلاق النسق لا يعني، بأي حال من الأحوال، عدم إمكان صنع دلائل أخرى من الممكن إدراجها ضمن نفس النسق شريطة أن يخضع صنعها لنفس القواعد التي بُنيت على أساسها دلائل النسق المعني. وما عدا هذا الإمكان، فإن قائمة الدلائل ينبغي أن تُغلق وإلا فإننا لن نكون بإزاء نسق وإنما بإزاء ركام من الدلائل التي تم تجميعها دون أي احترام لقواعد استعمالها الخاص بها.

2. انقسام الأنساق الدلالية

تنقسم الأنساق الدلالية إلى قسمين كبيرين: أنساق دلالية طبيعية وأنساق دلالية اجتماعية. والأنساق الدلالية الطبيعية هي تلك الأنساق التي توجد في الطبيعة. وتنقسم هذه الأنساق بكونها غير مؤسسية إلا أن الإنسان وظفها داخل مملكة الدلائل أي أنه أسند إليها دلالات مخصصة. أما الأنساق الدلالية الاجتماعية فهي «في نفس الآن الأنساق وكل ما نتج عنها أي أنها ما قبل التاريخ الإنساني والتاريخ الإنساني منظورا إليه من زاوية السيميوطيقا العامة» (4). إن الأنساق الدلالية الاجتماعية هي تلك الأنساق التي تتميز بكونها مؤسسية وبكونها من نتاج عمل الإنسان.

وتنقسم الأنساق الدلالية الاجتماعية إلى أنساق دلالية اجتماعية لفظية Verbal وأنساق دلالية اجتماعية غير لفظية. والأنساق الدلالية اللفظية هي: «تلك الأنساق التي لها لغات ولها خصوصيات متنوعة وإعدادات مثل الأنواع السننية. وتقوم هذه الأنواع السننية على التميزات التي يحدثها الإنسان في مادة الصوت» (5). والمقصود باللغات، عند روسي — لاندي، الحالات الخاصة للكلام أي للقدرة الإنسانية على استعمال أنواع سننية متسقة للتلفظ بأصوات قصد أغراض تواصلية وتعبيرية عادية (6). ومن الواضح، أن روسي — لاندي يقصي من هذا النوع من الأنساق اللغة الشعرية واللغات التقنية واللغة الطقوسية واللغات الأيديولوجية المختلفة ولغة الرياضيات. وعلاوة على ذلك، فإن مفهوم الأنساق اللفظية،

(4) Linguistics and Economics P. 12

(5) نفسه ص 13

(6) نفسه. نفس الصفحة.

عنده، لا يأخذ بعين الاعتبار التمايز بين ماهو منطوق وما هو مكتوب (7)، فهذا المفهوم يشملهما معا.

أما الأنساق الدلالية الاجتماعية غير اللفظية فهي تلك التي «لا تستعمل أنواعا سننية قائمة على أصوات متلفظ بها، ولكنها تستعمل أنواعا سننية قائمة على أنماط أخرى من الأشياء، هاته الأشياء الأخرى التي سيُسميها بالأجسام bodies هي إما أشياء توجد قبلها في الطبيعة وإما أن الإنسان أنتجها لغايات أخرى، وإما أنها أنتجت بغرض أن تستعمل بوصفها دلائل أو أنها استعملت باعتبارها دلائل في نفس الفعل الذي نتجت فيه (8).

وتتكون هذه الأنساق الدلالية غير اللفظية من:

1 — حركات الأجسام Kinesic وأوضاع الجسد postural: التواصل بالإشارات، تعابير الوجه وتعابير أخرى وأوضاع الجسد...

2 — الإشارات الدالة على القرب proxemic المتعلقة باستعمال الإنسان للمكان.

3 — اللمسي Tactile والشمي Olfactory والذوقي gustative والبصري visual والسمعي auditory إلى درجة نستطيع فيها إبعاد أنساق دلالية غير لفظية أخرى قائمة أيضا على السمع والبصر.

4 — الشيئي objectual أي الأنساق القائمة على أشياء يروضها الإنسان وينتجها ويستعملها: ثياب، حلي، زخارف، أدوات مختلفة، آلات، بناءات من كل نوع، موسيقى، فنون رمزية...

5 — المؤسسي Institutional: كل أنواع التنظيمات الاجتماعية، وبالتحديد كل الأنساق المتصلة بروابط القرابة والطقوس والأعراف والعادات والنظم القضائية والديانات والسوق الاقتصادي... (9).

وبخصوص هذه الأقسام، يلاحظ روسي — لاندي أن الأقسام الثلاثة الأولى (حركات الأجسام... والإشارات الدالة على القرب... واللمسي والشمي والذوقي والسمعي والبصري) تحيل على جسم الإنسان أي أنها تحيل على العضوية الإنسانية. أما الأقسام الباقية، فتحيل على أشياء خارجة عن العضوية الإنسانية.

ونخلص من هذا التمييز إلى أن الأقسام الثلاثة الأولى أنساق دلالية عضوية وأن الأقسام الباقية أنساق دلالية أداتية Instrumental، ذلك أن الإنسان، في الحالة الأولى، يقوم بسلوك معين، أما في الحالة الثانية، فإنه يقوم بسلوك بواسطة شيء (10).

(7) نفسه. نفس الصفحة.

(8) نفسه. ص 13 — 14

(9) نفسه. ص 14

(10) نفسه. نفس الصفحة.

أما أمبرطو إيكو، فإنه يرى في الأنساق الدلالية، مهما كانت أقسامها، ثمانية عشر نسقا. وقد انطلق، في هذا التصنيف، من أنساق التواصل التي تبدو، في الظاهر، أكثر «طبيعية» وأكثر «عفوية» — أي «أقل ثقافيا» — وصولا إلى العمليات الثقافية الأكثر تعقيدا. وهذه الأنساق هي:

1 — سيميوطيقا الحيوان Zoosémiotique ويخص الأمر السلوكات المتصلة بالتواصل داخل الجماعات غير الانسانية، وبالتالي الجماعات غير «الثقافية».

2 — العلامات الشمية Olfactifs كالعطور مثلا.

3 — التواصل اللمسي Tactile كالقبلة والصفعة...

4 — سنن الذوق ويتعلق الأمر بممارسة الطبخ.

5 — العلامات المصاحبة لما هو لساني para-linguistique : كأنماط الأصوات في ارتباطها مع الجنس والسن والحالة الصحية... ومثل العلامات المصاحبة للغة كالكيفيات الصوتية (علو الصوت، مراقبة العملية النطقية...) وكالتصويتات (الأمزجة الصوتية: الضحك والبكاء والتنهدات...).

6 — السيميوطيقا الطبية : علاقة الأعراض بالمرض.

7 — حركات الأجسام Kinésique والاشارات الدالة على القرب proxémique ويتعلق الأمر باللغات الاشارية gestuels.

8 — الأنواع السننية الموسيقية.

9 — اللغات المُشَكَّلَة formalisés مثل الجبر والكيمياء وسنن الشفرة Morse....

10 — اللغات المكتوبة والأبجديات المجهولة والأنواع السننية السرية.

11 — اللغات الطبيعية (مثل اللغة العربية والفرنسية والانجليزية)...

12 — التواصل المرئي Visuelle : مثل الأنساق الخطية واللباس والاشهار...

13 — نسق الأشياء : مثل المعمار وعامة الأشياء.

14 — بنيات الحكيم.

15 — الأنواع السننية الثقافية مثل آداب السلوك والترائيات والأساطير والمعتقدات

الدينية القديمة...

16 — الأنواع السننية والرسائل الجمالية : علم النفس والابداع الفني، والعلاقات

بين الأشكال الفنية والأشكال الطبيعية...

17 — التواصل الجماهيري : مثل علم النفس وعلم الاجتماع والبيداغوجيا ومفعول

الرواية البوليسية والأغنية.

18 — الخطابة : La rhétorique (11).

وإذا كان أمبرطو إيكو قد فصل في الأنساق الدلالية وأفاض في تفريعاتها، فإن مدرسة طارتو Tartu السوفياتية قد اقتصرت على تقسيم هذه الأنساق إلى قسمين كبيرين هما : أنساق مُنَمَّذجة أولية Systèmes modelants primaires وهي الأنساق اللفظية اللسانية، وأنساق مُنَمَّذجة ثانوية Systèmes modelants secondaires مبنية على الأنساق الأولى. وتُصنَّفُ ضمن هذه الأنساق الثانوية الدين (والأساطير) والشعر (وعموما الفنون) والملاحم المميزة للثقافة (12).

لقد وقفنا عند منظورات ثلاثة تنقسم بموجبها الأنساق الدلالية إلى أقسام تختلف من منظور إلى آخر. فبم تتميز هذه المنظورات الثلاثة وهل تختلف عن بعضها البعض اختلافا عميقا ؟

ينطلق روسي — لاندي في تقسيمه للأنساق الدلالية من مفهوم القيمة Valeur، ذلك أن كل ما له قيمة — وبالتالي كل ماله معنى — هو دائما نتاج لعمل الانسان إذ القيمة شيء قد أدخله الانسان إلى العالم ولا زال يدخله إليه (13). ووفق ذلك، فالأنساق الدلالية، كيفما كانت أقسامها، ذات قيمة وذات معنى. وإذا صح ذلك، فهي جميعا نتاج لعمل الانسان فكيف، والحالة هذه، يحق لنا الحديث عن أنساق دلالية طبيعية ؟

يمثل روسي — لاندي للأنساق الدلالية الطبيعية بالسنن النشوي وأنواع سننية أخرى موجودة في الطبيعة بواسطة التأويل الذي يقوم به الانسان مثل سنن البحر والملاحة «المكتوب بواسطة أشياء» لكن الملاحين هم الذين يستعملونه (14). وقد دفع به هذا الأمر إلى التساؤل : بأية طريقة يمكننا أن نحدد مملكة الدلائل داخل مملكة الطبيعة ؟ ثم يجب بأنه من غير اللائق الحديث عن مجرد الطبيعة من خلال كثافة الأنواع السننية والمعاجم والايديولوجيات مثلما نفعل حينما نتحدث عنها في واقعنا.

لذلك يجب علينا أن نحدد مملكة الطبيعة داخل مملكة الدلائل. وإلى جانب ذلك، يعتبر روسي — لاندي أن لهذا التساؤل مظهرا مهما ومعقدا يمكن صياغته في شكل السؤالين التاليين : هل يجب، أيضا، اعتبار الأنساق الدلالية المضمرة في العلاقات الحيوانية في تجمعاتها أنساقا دلالية طبيعية لا غير ؟ وهل تكون هذه التجمعات الحيوانية مجتمعات بالمعنى الصحيح للكلمة ؟ (15).

(11) — 19 La structue absente P.14

(12) Szepe et Voigt. Alternatives sémiologiques, in Recherches Internationales à la lumière du marxisme N° 81, p. 15

(13) Linguistics and Economics P.5

(14) نفسه ص 12

(15) نفسه. نفس الصفحة

إن روسي — لاندي يرى أن ما ينبغي القيام به يكمن في تحديد الطبيعة داخل مملكة الدلائل لا العكس لأن مظاهر الطبيعة غير دالة في ذاتها، وإنما تدل حالما تُنقل إلى عالم الإنسان أي حينما يضيف عليها الإنسان معاني ودلالات. وبذلك فهي لم تعد طبيعية خالصة وإنما صارت إنسانية أي اجتماعية بحيث يمكن اعتبار الأُسنة مثلاً ظاهرة إنسانية ما قبل — تاريخية وتاريخية. وبالإضافة إلى ذلك، فإن الإنسان قد أصبح يستعمل هذه المظاهر الطبيعية كدلائل وأصبح يتبادل بها مع بني جنسه. وإذن، فإن هذه المظاهر الطبيعية قد أسندت إليها مجموعة من الوظائف التي لم تكن لها من قبل. لقد أضحت أدوات إنتاج إنسانية إلا أن المادة التي تتكون منها هي الطبيعة. غير أن الإنسان، من خلال نشاطه الواعي أو غير الواعي، هو الذي جعل منها دلائل. ويعني ذلك أن مثل هذا العمل يندرج ضمن سيرورة تغيير الإنسان للطبيعة وترويضها والتحكم فيها خدمة لأغراضه ومصالحه الحيوية. والخلاصة هي أن هذا النوع من الأنساق الدلالية هو نتاج لعمل الإنسان، فتلتحق بذلك الأنساق الدلالية الطبيعية بالأنساق الدلالية الاجتماعية.

وإذا سلمنا بصحة ذلك، فإن التقسيم الأسلم للأنساق الدلالية، باعتبارها جميعاً أنساقاً دلالية اجتماعية، هو ذلك الذي يعتبرها صنفين: صنف الأنساق الدلالية اللفظية وصنف الأنساق الدلالية غير اللفظية.

والأنساق الدلالية اللفظية هي تلك الأنساق التي تتخذ من اللغات الطبيعية أداة لتكوين الدلائل، أو تتكون من دلائل لسانية مكتوبة أو منطوقة أي أن سَمَنَها يعتمد على الأصوات الملفوظة أو على الحروف الخطية التي هي علامات لتلك الأصوات. ويترتب عن ذلك تقسيم للأنساق الدلالية اللفظية إلى قسمين: أنساق دلالية لفظية منطوقة وأنساق دلالية لفظية مكتوبة.

أما الأنساق الدلالية غير اللفظية فهي تلك الأنساق التي تستخدم أنواعاً سننية غير معتمدة على الأصوات أو على الحروف الخطية. وإنما تستخدم أنواعاً سننية معتمدة على أنماط أخرى من الأشياء وهي موجودة في الطبيعة أي غير مصنوعة من قبل الإنسان، وأنماط من أشياء أنتجها الإنسان لخدمة أغراض أخرى غير نقل الدلالة مثل اللباس مثلاً الذي صُنِعَ ليقى الإنسان من البرد والمطر وغيرهما، وأنماط من أشياء أنتجها الإنسان لتقوم في أساسها بوظيفة نقل المعاني والدلالات مثل علامات المرور والملاحة.

والجدير بالملاحظة أن هذه الأنساق الدلالية غير اللفظية تنقسم، بدورها، إلى أنساق دلالية عضوية، أي تلك التي تتخذ من جسم الإنسان دلائل ذلك أن الإنسان يستخدم أعضاء من جسده بل جسده وذاته لآحداث أنواع من السلوكات المعينة، وإلى أنساق دلالية أداتية أي تلك التي تتخذ من غير جسم الإنسان دلائل بحيث يستخدم الإنسان وسائله معينة لنقل الأخبار والمعاني.

وتتميز هذه الأنساق الدلالية الاجتماعية، كيفما كان نوعها، بكونها مؤسسية أي قائمة على نوع من الاتفاق والتواضع لأنها جميعاً من إنتاج عمل الإنسان. غير أن الأنساق الدلالية الاجتماعية متفاوتة فيما يخص كونها من إنتاج عمل الإنسان. إذ هناك من لا يعتبر الأنساق الدلالية غير اللفظية الشيئية كالثياب والحلي والزخارف أنساقاً دلالية اجتماعية، بل إن جزءاً من الأنساق الدلالية المؤسسية لا يعتبر بعد أنساقاً دلالية اجتماعية. وفضلاً عن ذلك، فإن الأنساق الدلالية العضوية ليس معترفاً بها بعد كأنساق اجتماعية. ويعود ذلك، في رأي روسي — لاندي، إلى أنها لا توجد في الطبيعة وأنها بدل ذلك نتاجات عمل الإنسان. (16).

إن مرد مثل هذا الاختلاف، فيما يراه روسي — لاندي، يكمن في مفهوم غامض للعمل أو في حصر مفرد لمفهوم العمل. فإذا لم نقصد بالعمل غير سلوك الصانع الذي يغير أشياء متنوعة ويؤلف فيما بينها (مثلاً، دولب، غراء، مسامير) بواسطة أدوات والذي يمدنا بشيء جديد باعتباره إنتاجاً (طاولة مثلاً)، ثم نظراً لخاصيتها الكامنة في كونها نتاجاً للعمل، فإنها ستنتهي إلى الأنساق الدلالية الشيئية لا غير، ومن الممكن ألا تنتمي إليها كلها (17). واضح أن روسي — لاندي يُوسّع من مفهوم العمل ويميزه عن مجرد النشاط البسيط: «إننا، باعتبارنا أفراداً، نقوم بعمل... إلا أن اتفاقاً لقوة العمل يمكن أن يسبّب نتاجات أي أن يخلق معنى، ولابد من وجود آلات يُعتمد عليها لأجره وأدّت لتطبيقها وإجراءات لانفاقها. وكل هذا توفره لنا بالفعل وتفرضه علينا الأنساق الدلالية الاجتماعية (18). وعلاوة على ذلك، فإن لعبة الشطرنج من جهة، وسنن اللغة، من جهة أخرى، يوفران معاً أمثلة جيدة لبرامج ذات مقدار معين من الحرية. إننا أقل وعياً بسنن اللغة بالنظر إلى سنن الشطرنج لأن الأول أكثر تعقيداً ولأن اللغة ضرورية بينما الشطرنج غير ضروري. وفضلاً عن ذلك، ومع أن اللغة نتاج إنساني، فإنها لم تخترع، بالتأكيد، بنفس المعنى الذي اخترع به الشطرنج واخترعت به باقي اللّعب. إن الأنواع السننية التي تحظى بأقل وعي لأنها لا تزال أقل شرطية هي تلك الأنواع السننية غير اللفظية التي تُمارَسُ بوراثية عتيقة لتطور ليس اجتماعياً فحسب وإنما هو تطور بيولوجي أيضاً» (19).

ولوعدنا إلى أولى الفترات من الأُسنة «لوجب علينا أن نفترض بأن البرامج السلوكية من المجموعة غير اللفظية قد بدأت، في ذلك الوقت، وبشكل مبكر، في التشكل والتعلم والانتقال من جيل إلى آخر بصفة لاواعية. إن للخطاب اللفظي الذي يصاحب، دوماً، هذه

(16) نفسه. ص 14 — 15

(17) نفسه ص 15

(18) نفسه ص 28

(19) نفسه ص 29

البرامج خاصة مميزة تكمن في عدم أخذها بعين الاعتبار أو بالأحرى لا يساهم في إخفاؤها (20).

إن كل السلوكات حصيلة لنتاج عمل الانسان الواعي منه وغير الواعي ، إنها حصيلة عمل جماعي واجتماعي. فالطفل منذ ولادته ينتج الدلائل غير اللفظية ويستهلكها ويتبادلها قبل أن ينتج الدلائل اللفظية وقبل أن يستهلكها ويتبادلها. هكذا تلازمنا عملية الأُسُسَة البيئية في كل ما نقوم به.

إن الانسان ، وهو ينجز مثل هذه البرامج ، يماثل الآلات الأوتوماتيكية. كما يستحيل عليه تجنب استعمال الأنساق الدلالية اللفظية والأنساق الدلالية غير اللفظية خاصة منها تلك التي تشكلت قبل مجيء الانسان الى الوجود. ومثل هذا مقبول في مجال الأنساق الدلالية غير اللفظية العضوية ومجال الأنساق الدلالية المؤسسية والشيئية.

إنه مما لاشك فيه أن كل هذه السلوكات غير اللفظية التي تحمل معاني ودلالات لاتصدر إلا عن برامج وعن تفاعلات مبرجة بين الانسان والبرامج. ويعني هذا أنه ينبغي رد الاعتبار لمختلف الأنساق الاجتماعية غير اللفظية واعتبارها اجتماعية مثل الأنساق الدلالية اللفظية مادامت تساهم بفعالية في تشكيل جوهر حياتنا الاجتماعية كلها. بل إن الأشياء «لغة» وخاصة منها أشياء وسائل الانتاج.

أما المنظور الثاني ، فهو منظور أمبرطو إيكو الذي يصنف الأنساق الدلالية جميعها اعتمادا على معيار ثقافي محض. فالأنساق جميعها أنساق ثقافية تُرَبَّب انطلاقا من الأنساق الأقل ثقافيا إلى الأنساق الأعقد ثقافيا. ومن الملاحظ هنا أن الأنساق الطبيعية والعضوية لاتشكل صنفا خارج الثقافي. وبذلك ، فهي نتاج ثقافي للانسان ، إلا أنه نتاج ثقافي بسيط وعفوي. أما الأنساق الأعقد ثقافيا فتوجد في قممتها الخطابية ثم التواصل الجماهيري ثم الابداع الفني ثم الأنواع السننية الثقافية. وما بين هذين الصنفين من الأنساق توجد أنساق ثقافية ما عدا السلوكات الحيوانية لأن الحيوانات جماعات غير ثقافية إلا أنها اندججت في المحيط الثقافي للانسان.

أما بخصوص المنظور الثالث ، وهو منظور مدرسة طارتو ، فإنه ينطلق من التمييز بين ماهو لغوي أساسا وبين ماهو غير لغوي. إننا نصوغ العالم وفق مجموعتين من الأنساق ، المجموعة الأولى هي اللغات الطبيعية وهي أكثر الأنساق دقة في صياغة العالم ، والمجموعة الثانية لاتصوغ العالم إلا على أساس المجموعة الثانية. ويُدمَج هذان النوعان ليُكوَّنَا معاً موضوع سيميوطيقا الثقافة (انظر للمزيد من التوضيح الفصل المخصص لسيميوطيقا الثقافة).

3. الأنساق اللفظية والأنساق غير اللفظية

أي صنف من هذين الصنفين يبدو الصنف الأهم والمميز ؟ أهو صنف الأنساق اللفظية أم صنف الأنساق غير اللفظية ؟ وماهي الأسس الموجهة لأية نظرة من النظرتين ؟ يذهب أمبرطو إيكو وإيزابيلا بيتسيني I.Pezzini إلى أن النسق اللفظي يمتلك ، من بين كل الأنساق ، خاصيتين مميزتين : فهو النسق الذي يمكن أن تترجم إليه كل الأنساق الأخرى دون استثناء ، هذا أولاً ، وثانياً ، إنه النسق المدروس بشكل أفضل والنسق الذي يمكننا أن ندرسه بشكل أفضل وأن نحلله ، بدقة متناهية ، إلى وحدات نطقية (21). وإذا كانت الواقعة الثانية ، كما يرى أمبرطو إيكو وإيزابيلا بيتسيني Isabella Pezzini ، واقعة صحيحة تاريخيا إلى حدود بداية الستينات ، فإن الواقعة الأولى صحيحة إلى حد ما ذلك أن النسق اللفظي هو النسق الذي يمكنه أن يُترجمُ بألفاظه الخاصة ، أفضل من الأنساق الأخرى ، الرسائل التي تبعث بها أنساق أخرى ، بينما العكس ليس صحيحا دائما. ومع أن الواقعة الأولى صحيحة ، فإن القول بأن النسق اللفظي يمكنه أن يترجم رسائل الأنساق الأخرى لايعني أن قوانين النسق اللفظي هي قوانين الأنساق الأخرى (22).

إن رأي بارط يستند الى أن اللغة الانسانية ليست نموذجا للمعنى فقط ، وإنما هي أيضا أساسه (23). وبهذا الاعتبار ، فإن الأشياء لاتدل إلا بواسطة اللغة الانسانية لأن اللغة هي التي تمدنا بالمعنى ، ومعناها هو النموذج والمثال ، أما معاني الأشياء فهي لا تعدو أن تكون معاني ترمي إلى الاقتراب من المعاني النموذجية والمثالية التي توفرها اللغة.

ويعني ذلك ، من جهة ثانية ، أن تقطيعنا للعالم تقطيع لساني في جوهره ، إذ لا تتكوّن المعاني مالم تكن هناك لغة ، إذ هي المنطلق والسند. وعليه ، فإن أي شيء لا يصير دالا إلا بالاحالة على النسق الدال الأول لأن ذلك الشيء ليس سوى مرآة للنسق اللفظي. إن أي شيء غير لفظي لايمكنه أن يتكلم أو أن يدل إلا بواسطة اللغة التي تتكلمه وتتكلم عنه ، ولذلك ، فدلالته متوقفة على الدلالة اللسانية التي امتدت لتحتوي ظواهر أخرى. وإذن فاللغة تؤسس كل الأنماط الأخرى للدلالة (24) ، ولولاها لما كانت الأشياء دالة وحاملة لمعانٍ. ومن ثمة ، فنموذج الأنساق غير اللفظية نموذج لساني بل إن قوانينها هي قوانين النسق اللفظي ، وهذا مالم يره أمبرطو إيكو وإيزابيلا بيتسيني صحيحا.

وفي مواجهة هذا التصور ، هناك تصور روسي — لاندي الذي يفترض استقلالية الأنساق الدلالية غير اللفظية عن اللغة وتميزها عنها. ويشرع في معالجة هذه المسألة انطلاقا

(21) La Sémiologie des Mythologies. in communications 36. P. 31

(22) نفسه ص 31 — 32

(23) Système de la mode P.9

(24) نفسه. ص 24

1 — لقد كانت اللغات هي الأنساق الدلالية الاجتماعية الأولى التي تبارت حولها العناية بمجهد واع، وقد نما حول اللغة نفسها فضول دليلي، وقد تمكن هذا الفضول والأدوات المعدة لتبليته من الشروع، في لحظة ثانية، في التوسع خارج اللغة، في حركة باتجاه أنساق أخرى — سواء درست هذه الأنساق الدلالية من جهات مختلفة للنظر أم لم تدرس — (...) وقد بدأت تظهر طبيعة كل الأنساق الدلالية غير اللفظية حول منطقة إدراكية كانت، في الأصل، مقتصرة على الأنساق الدلالية اللفظية (29).

2 — إن الأصوات المتلفظ بها التي تعتمد عليها الأنواع السننية للغات أشياء مؤسّسة أنتجها جسم الانسان، وهي، في الوقت ذاته، داخل العضوية وخارجها. ويعني هذا أن اللغة، في أحد مظاهرها، صلة بالأنساق الدلالية غير اللفظية المنتسبة للنمط الشيعي. وفي جانب آخر، تعتبر اللغة ذات صلة بالأنساق الدلالية غير اللفظية المنتمية الى النمط المؤسسي، كما تعتبر في جانب ثالث، ذات صلة بأنماط متنوعة من الأنساق الدلالية التي يمكن أن تُوحّد بينها تحت عنوان العضوية. ومن شأن علاقات القرابة هذه أن تَكْسِبَ اللغة تغطية تفتقر إليها، عادة، الأنساق الدلالية غير اللفظية. إن كل فرد منا يتعلم كيف يصدر بنفسه، بواسطة جسمه، الأصوات المنطوقة للغة دون أن يضطر الى الاستعانة بأي شيء خارجي. ومع ذلك، فإن هذه الأصوات أشياء موجودة في العالم الخارجي. وفي الأخير، تشكل هذه الأصوات مؤسّسة، ونسقا «فوق — فرديا». ثم ينتهي روسي — لاندي الى أن اللغة، رغم تعقيدها، فإنها تقدم نفسها بوصفها موضوعا للدراسة مغريا وفي المتناول. (30).

3 — السبب الثالث سبب ذو أهمية كبرى، ويتعلق الأمر بالسبب الايديولوجي. فلقد كانت اللغة، على الدوام، مستودعا للسلطة بامتياز ذلك أن الطبقات المسيطرة والطوائف والجماعات قد كانت توظف اللغة، دائما، لخدمة أهدافها الخاصة. لقد كان التعارض القائم بين الرأس واليد، منذ البداية، تعارضا بين الأنساق الدلالية اللفظية والأنساق الدلالية غير اللفظية (31).

وفي اعتقاد روسي — لاندي أن هذه الأسباب الثلاثة كفيلة بتفسير الأسبقية التي أحرزت عليها اللغة — وما تزال تحرز عليها. إلا أنه يرى، من جهة ثانية، أن هذه الأسباب ذاتها لا يمكنها أن تكون في صالح تلك الأسبقية المسندة إلى اللغة. ومن جهة ثالثة، يعترض روسي — لاندي على «أسبقية اللغة» في المطلق ذلك أن قولنا بهذه الأسبقية يعني أن اللغة لا توجد بالفعل بدون أنساق دلالية أخرى. ثم إن القول بأسبقية اللغة شبيه بالقول بأسبقية

من الاعتراف بأن أهمية الأنساق الاجتماعية غير اللفظية تحول دونها عقبات مترتبة عن عدة عوامل منها الاعتقاد المفرط في نسبة تفوق اللغة المنطوقة والمكانة الرفيعة التي تحتلها. ومن العضلات التي توقف عندها روسي — لاندي وحارها الرأي القائل بضرورة وجود اتفاق لفظي سابق ليُتخذ نسق الدلائل غير اللفظية مكانا بين المستعملين للنسق. وفي رد روسي — لاندي على مثل هذا الرأي يعتبر أن هذا الاتفاق يجب، في الواقع، أن يجد مكانه بين الناس الذين يفتقدون النسق الدلالي غير اللفظي بالذات. ومن جهة ثانية، فإنه من اللامعقول أن يتكلم الناس ولا يقومون بعمل ولا يملكون أية مؤسّسة أخرى غير مؤسّسة اللغة. وإضافة الى ماسبق، فإن فكرة الاتفاق السابق تعود بنا الى النزعة التعاقدية المجحفة، أي أنها تعود بنا الى المفهوم القائل بوجود أفراد ذوي تكوين مهيم قبلها قد شرعوا في النقاش ليصوغوا ذلك العقد الذي تعود إليه قوة تكوينهم بدل شيء آخر (25). وانطلاقا من ذلك، يرفض رفضا باتا الموقف الذي يجعل الأنساق الدلالية غير اللفظية متوقفة في ظهورها على الأنساق الدلالية اللفظية، كما يرفض الموقف الذي يبنّي على التسليم بالبنية اللغوية الموجهة. ويُعزّز رفضه هذا باعتباره أن كل الأنساق الدلالية الاجتماعية قد تطورت جنبا الى جنب (26)، وأن هذه الأنساق قد وجدت، منذ البداية، في شروط استقلال بنيوي متبادل، وفي نفس الآن في شروط تأثير متبادل. إلا أن ذلك لا يعني، في رأيه، غياب أية هرمية مفروضة من قبل حاجات واقعية، على الأنساق الدلالية، وإنما يعني أن الأنساق الدلالية الاجتماعية الأساسية هي أنساق أولية مُنمّجة، تبعا لمصطلح لوتمان Lotman الذي يعتبر نسق اللغة هو النسق الأولي ويعتبر كل الأنساق الدلالية غير اللفظية ثانوية. وإذا كانت لكل الأنساق الدلالية الاجتماعية قوة منمّجة أولية، فإن التقدير الاستقرائي الناجم عن فصل كل نسق دلالي اجتماعي عن الأنساق الأخرى تقدير يفترض طبيعة تجريدية خطيرة (27). وقد أفضى هذا القول بروسي — لاندي الى الاعتقاد بأن فكرة دراسة نسق دلالي اجتماعي في انعزال عن أنساق دلالية اجتماعية أخرى فكرة خاطئة في ذاتها. ولأن الانسان يعيش في الطبيعة وهو أيضا، نفسه طبيعة، فإن مفهوم دراسة الأنساق الدلالية الاجتماعية حينما تكون معزولة عن الأنساق الدلالية الطبيعية لا يمكن أن يكون مفهوما صحيحا (28).

وينتقل روسي — لاندي، بعد ذلك، إلى عرض ثلاثة أسباب تُفسّر الأسبقية المعطاة، عادة، للأنساق الدلالية اللفظية. وهي :

(25) Linguistics and Economics P. 18

(26) نفسه. نفس الصفحة

(27) نفسه. ص 18 — 19

(28) نفسه. ص 19

(29) نفسه. نفس الصفحة

(30) نفسه. ص 19 — 20

(31) نفسه ص 20

الهضم على التنفس أو أسبقية الأنهار ، في تشكيلها ، على البحار ، أو أسوأ من ذلك بأسبقية الطرقات السهلية على الطرقات الجبلية.

وبما أن اللغة وجميع الأنساق الدلالية الأخرى لجماعة ما ، تنسج ، في حقيقة الأمر ، علاقات تبادلية ، فإنه من غير المفهوم إطلاقاً تبرير كيفية إسناد المرء أسبقية حقيقية إلى أي نسق من هذه الأنساق الدلالية.

وإذا سلمنا بأسبقية اللغة وسيطرتها على الأنساق الدلالية الأخرى ، فإن ذلك لا يعني مطلقاً ، فيما يذهب إليه روسي — لاندي ، أن كل الأنساق الدلالية الأخرى ستكون متوقفة على اللغة. بل إن هناك أسباباً معقولة تدفعه إلى تبني تصور نقيض لمثل هذا التصور وإن كان لا يتعلق بكل الأنساق الدلالية غير اللفظية ، وإنما يتعلق بالكثير منها. إن اللغة تتوقف على أنساق دلالية تجدها حاضرة وجاهرة عند حيوانات أخرى. ويرجع ذلك إلى الاستمرارية البيولوجية القائمة بين الحيوانات والإنسان. وبما أن الأنساق الدلالية قد وجدت قبل اللغة ، فإنه من الواجب أن تكون اللغة قد تكيفت معها. وفضلاً عن ذلك ، فإن اللغة لا زالت تُطعم وتتغذى من كل الأنساق الدلالية غير اللفظية التي تحيل عليها (32).

ويعزز روسي — لاندي هذا التصور بتلك الصعوبات التي يواجهها الإنسان الذي يريد تعلم لغة أجنبية ، وهي صعوبات تتصل بعدم قدرته على استيعاب الثقافة التي تستند إليها تلك اللغة. يقول روسي — لاندي : «من الواضح ، أن ما يتبقى من ثقافة معينة لا يكمن في شيء غير الأنساق الدلالية غير اللفظية» (33).

إن النسق الدلالي غير اللفظي ، فيما يرى روسي — لاندي ، ليس متميزاً عن اللغة فحسب ولكنه مستقل عنها كذلك. وللبهنة على ذلك أخذ مثالا من النسق الدلالي غير اللفظي الشيعي المكون من الأشياء المادية المستعملة في الحياة المنزلية اليومية وهو السكين. إن سكين المائدة شيء مصنوع أنتجه الإنسان. وكل شيء مصنوع هو بمثابة شيء اجتماعي مزود بخصائص محددة تجعله أداة ناعمة. والسكين ، كشيء ، ليست أداة تُستعمل لكي تمد جسم الإنسان بقدرة بين الفينة والأخرى فحسب ، وإنما هي ، على الأصح ، أداة مُنتجة وفقاً لنموذج معين وأغراض دقيقة : فهي شيء مستقل وتام بذاته. إنها شيء يمكن أن يُستعمل — ويُستعمل في كل حين — في مجالات مختلفة ومتعددة من قبل أي فرد من أفراد الجماعة البشرية. فالسكين أداة حقيقية وذات مستوى معقد ونافع في أن ، وتتكون من عدة أجزاء. ولقد صُنعت وشكلت من قبل الإنسان تبعاً لقواعد محددة تماماً كما يصنع الإنسان الجملة ويكونها وفق قواعد محددة. وهي تُستعمل لقطع أشياء معينة ولا تُستعمل لقطع أشياء أخرى.

(32) نفسه. ص 20 — 21

(33) نفسه. نفس الصفحة

إن لغة الأشياء — وهو مصطلح يعادل مصطلح الأنساق الدلالية غير اللفظية — هي كل ما تقوم به السكين وتعادل كل ما يمكن للسكين أن تنسج معه علاقة حقيقية ، وعلى غرار هذا المنوال تشكلت «الخطابات» (أي مجموعة من الجمل المرتبطة فيما بينها) التي يمكن للسكين أن تكون جزءاً منها (34).

إننا حينما نرى صديقاً على المائدة يقطع خبزه بالسكين ، فإننا نُجمع على أن ما يفعله شيء طبيعي بالنسبة إلينا. أما إذا رأيناه يحاول قطع الحديد ، فإننا نفهم ما الذي يرغب في القيام به لأن هذا الفعل يحمل معنى وإن كنا نعتقد بأنه فعل مستحيل. غير أن هذا الصديق إذا شرع في قطع الهواء أو الماء فإن سلوكه سيبدو غير معقول أو أنه سيبدو سلوكاً مجازياً. إن كل هذه الصور تحدث بطريقة متميزة ومستقلة عن الأنساق الدلالية اللفظية التي نلجأ إليها عندما نريد أن نتكلم عن هذه العينات من السلوك (35). إن لغة الأشياء هي مسألة «المعاني الموضوعية السابقة على تكوين الوعي» والتي يتم فيها تواصل الناس فيما بينهم بشكل لا واع أثناء عملياتهم الانتاجية (36).

لقد حاول روسي — لاندي ، من خلال هذا الحديث الطويل ، أن يجلو العلاقات الحقيقية القائمة بين الأنساق الدلالية اللفظية وغير اللفظية ، وذلك عبر انتقاده للأفكار المغلوطة الصادرة في هذا الموضوع حول أفضلية النسق اللفظي وأسبقيته.

إن النسق الدلالي غير اللفظي لم يوضع وضعاً قائماً على التعاقد لأنه يشكل الحيز الحيائي الذي يعيشه الإنسان. إنه الفضاء الاجتماعي والزمني والمكاني الذي وجد الإنسان نفسه فيه. وهو مجال حيائي طبيعي واجتماعي أو طبيعي ومصنوع. ويعني ذلك أن الإنسان لم يكن يفترق إلى النسق الدلالي غير اللفظي. ويعزز هذا الرأي كون الأنساق الدلالية غير اللفظية ليست جميعها أنساقاً واعية إذ إن جزءاً غير يسير منها غير واع.

ومؤدى ذلك أن مختلف الأنساق ، لفظية كانت أم غير لفظية ، قد ظهرت إلى الوجود بجانب بعضها البعض بحيث إن الإنسانية كانت تملك جملة مؤسسات من بينها اللغة وجملة نتائج من بينها النسق اللفظي والنسق غير اللفظي.

وبهذا المعنى ، فإن الأنساق غير اللفظية لا تتوقف ، في حقيقة أمرها ، على اللغة. وإذا صح ذلك فاللغة ليست متحركة في الأنساق غير اللفظية وليست موجهة لها لأن مختلف الأنساق قد نشأت في ظروف متماثلة جعلتها تتبادل التأثير فيما بينها. فالأشياء الطبيعية والمصنوعات الإنسانية قد نشأت منفصلة عن بعضها البعض متبادلة التأثير فيما بينها. إنها في مجموعها رموز متفردة وذات خصوصية من حيث الوظيفة الدقيقة التي تؤديها ومن حيث

(34) نفسه. ص 21 — 22

(35) نفسه. ص 22 — 23

(36) نفسه ص 23

ظروف تكونها أو من حيث تميز الخبر الذي تحمله ووضوحه ودقته. ورغم هذا التنوع ، فتد أطرتها شروط بنائية واحدة.

إن الانسان قد حصل على مؤسسات عدة تعايشت. وليست مؤسسة اللغة إلا واحدة منها. ولذلك لا يصح القيام بدراسة الأنساق الدلالية المختلفة في انفصال عن بعضها البعض لأن مثل هذا العمل يكتنفه نزوع خطير نحو التجريد.

ومع ذلك ، فإنه من الخطأ الاعتقاد ألا هرمية للأنساق الدلالية. ذلك أن حاجات الانسان الواقعية قد جعلت من اللغة النسق المُتمدِّج الأولي. فهي النسق الدلالي الأولي الذي نصوغ من خلاله تجربتنا وحياتنا وعالمنا ومشاعرنا وأفكارنا.

غير أن هناك أسبابا جعلت الأنساق اللفظية تهيمن على غيرها من الأنساق. ويعود ذلك ، في رأي روسي — لاندي ، إلى أن اللغة هي النسق الدلالي الذي حظي بعناية كبرى ، فقد أولى الانسان للغة عناية خاصة واعية تمحورت حول مستوياتها المختلفة من صوتيات وصرف وتركيب ودلالة. فأصبحت اللغة ، نتيجة لذلك ، مُستوعبة في دلالتها مختلف الأغراض والحاجيات الاجتماعية للانسان ، إلى أن توسع مجهود الانسان خارج اللغة باتجاه أنساق أخرى من شأنها أن تشبع الحاجيات الحياتية والفنية والجمالية لدى الانسان.

وإذا كان ذلك يشكل السبب الأول ، فإن السبب الثاني يكمن في كون المادة الأولية التي تتشكل منها اللغة — وهي الأصوات — هي أشياء ينتجها جسم الانسان أي جهازه النطقي. فهي ، إذن ، داخل الجسم وخارجه. وعليه ، فإن اللغة والأنساق الدلالية غير اللفظية تنتسب جميعا إلى الأنساق الدلالية الشيعية والأنساق الدلالية المؤسسية والأنساق الدلالية العضوية. وقد وفرت علاقات القرابة هذه بين الأنساق الدلالية اللفظية والأنساق الدلالية غير اللفظية تغطية للغة تفتقدها الأنساق الأخرى بحيث إن الانسان يتعلم إنتاج الأصوات دون أن يستعين بأي شيء خارجي عن جسمه. ورغم تعقيد اللغة فقد أولى الانسان اهتماما كبيرا لدراسة النسق اللفظي بشكل أفضل وأمثل في مقارنته مع باقي الأنساق. فركز أغلب الاهتمام على اللغة فاستحوذت على المجهودات الواعية للانسان وهُمشت أو كادت تُهمش الأنساق الدلالية غير اللفظية.

ويعود السبب الثالث إلى التوجيه والسيطرة الايديولوجيين. فاللغة ، من بين كل الأنساق ، أداة متميزة في يد السلطة والفتات المُميزة. فمن يمتلك اللغة يمتلك السلطة. وقد استعمل النسق اللفظي لتلبية حاجات هذه الفتات. ونتيجة لتقسيم العمل بين الجانب الفكري منه والجانب اليدوي ، تعارضت الأنساق اللفظية مع الأنساق غير اللفظية ، فمثلت الأنساق اللفظية الجانب الفكري ومثلت الأنساق غير اللفظية الجانب اليدوي. أي أن من يمتلك اللغة هو من يمتلك الفكر وحق التوجيه والسيادة ، ومن يمتلك الأنساق الأخرى هو من لا يمتلك غير واجب التنفيذ والانجاز.

ومهما كانت أهمية هذه الأسباب وقوة تفسيرها لهيمنة اللغة على باقي الأنساق الدلالية ، فإنها يمكن أن تُستَعْل ضد هذه الهيمنة ذاتها. فالقول بأسبقية اللغة في المطلق يجعل اللغة خارج الواقع مع أنها وجدت بصحبة الأنساق الدلالية الأخرى وتلاحمت معها. وإذا ما سلمنا هيمنة اللغة فإن ذلك لا يعني توقف هذه الأنساق على اللغة. بل إن اللغة ذاتها تتوقف على أنساق دلالية وجدت قبلها جاهزة. ولذلك صار من المفروض على اللغة أن تتكيف معها. وفضلا عن ذلك فإن تطور اللغة ونموها رهين بما توفر لها تلك الأنساق غير اللفظية. إن وراء اللغة ثقافة معينة تتحكم فيها وتوجهها باعتبار أن قواعد اللغة قواعد ثقافية. وفي هذا اعتراف بأن وراء اللغة أنساق غير لفظية تؤطرها. لذا وجب الحديث عن التقطيع الثقافي للعالم وعن الخلق الثقافي للدلالات بدل التقطيع اللغوي للعالم.

ويمكن أن نذهب إلى أبعد من ذلك فنقول إن الأنساق غير اللفظية متميزة بل ومستقلة عن اللغة وتُستعمل في انفصال عنها. إنها ذات قواعد محددة قد تطابق قواعد اللغة وقد تختلف عنها اختلافا بيّنا. ولذلك يصح الحديث عن «لغة الأشياء» التي تحقق نوعا من التواصل اللاواعي. وأما تأويلنا لدلالات هذه الأشياء ، فإنه يتحقق بدون أية استعانة باللغة ، وإنما يتحقق بشكل متميز ومستقل عنها.

الفصل الثالث

مفهوم الدليل

ليس من الممكن تقديم تعريف واحد للدليل. ومرد ذلك الى الخلفيات الفكرية التي يستند إليها. وسنحاول في هذا الفصل، تقديم بعض التعريفات المتداولة المتعارضة أو المختلفة مولين أهمية كبرى لمفهوم الدليل عند بورس الأمريكي.

1. الدليل عند سوسير

الدليل اللساني عند سوسير هو «وحدة نفسية ذات وجهين... وهذان العنصران مرتبطان ارتباطاً وثيقاً ويتطلب أحدهما الآخر... ونطلق على التأليف بين التصور Concept والصورة السمعية image acoustique الدليل... ونقترح الاحتفاظ بكلمة دليل لتعيين المجموع، وتعويض التصور والصورة السمعية، على التوالي، بمدلول ودال (1).

إن للدليل، إذن، مكونين هما الدال والمدلول. والدال لا يتشكل من الصوت الواقعي والمادي والطبيعي ذلك أن الصورة السمعية هي عبارة عن الانطباع النفسي للصوت. وهي أيضاً عبارة عن وسيط. أما المدلول، فإنه ليس ذلك الشيء الواقعي الملموس الذي يُعَيَّنُه الدليل، وإنما هو التمثيل الذهني للشيء. فهو، مثله مثل الدال، ذو طبيعة نفسية.

وإذا كان الدليل هو الجمع بين هذين العنصرين النفسيين، فهو بالضرورة كيان نفسي. وعليه، فإنه يجد موقعه في اللسان لافي الكلام باعتبار اللسان، في المفهوم السوسيري، مجموع العلاقات بين الأشكال والقواعد والبصمات المخزنة في أدمغة الذات المتكاملة.

والعلاقة بين الدال والمدلول لا تقوم على المشابهة والمناسبة وإلا لما تعددت الألسنة، بل تقوم هذه العلاقة على الاعتبارية إذ لا توحى الدوال بمدلولاتها بشكل تلقائي وطبيعي. أما اشتغال الألسنة على الكلمات المناسبة للطبيعة onomatopées وصيغ التعجب، فإنه لا يطعن

في صحة هذا المبدل. ففضلا عن كون هذه الكلمات محصورة العدد، فإنها سرعان ما تندمج في اللسان خاضعة لقوانينه الصوتية والصرفية. وهكذا، فإنه لا وجود لرابط طبيعي، في الواقع، بين الدال والمدلول (2).

ويطلق سوسير على هذا النوع من الاعتبارية الاعتبارية الجذرية أو المطلقة ذلك أن إنتاج الدال والمدلول يتم بواسطة تقطيع اعتباري للمادة الصوتية ومادة الأفكار. إن نسق الدلائل خاضع، في نظر سوسير، لنظرية القيمة. فالدليل لا يتحدد من خلال واقعه المادي. وإنما يتحدد من خلال ما يجاوره أي من خلال العلاقات الاختلافية *différentielles* والتعارضية *oppositionnelles* على مستوى الدوال وعلى مستوى المدلولات. وبالتالي، فإن القيمة هي التي تحدد الوحدة اللسانية (3).

ويتضح، من مفهوم الدليل عند سوسير، ما يلي:

- 1 — الدليل كيان نفسي مجرد ينتسب إلى اللسان لا إلى الكلام.
- 2 — الدليل ثنائي الطرفين، فهو يتكون من دال ومدلول. وفي ذلك اختزال له إذ يُقصَى الشيء المسمى أو المرجع.
- 3 — الدليل اعتباري بما في ذلك الدليل غير اللفظي الذي يتراوح بين الاعتبارية والطبيعية أي أن الدليل غير اللفظي يمزج بين هاتين الخاصيتين المتعارضتين.
- 4 — يُنظر إلى الدليل غير اللفظي انطلاقا من النموذج اللساني. وإذن، فإن الأسبقية تُعطى للدليل اللساني الذي يشكل المعيار والمقاس لمختلف الدلائل الأخرى.
- 5 — الدليل، بفضل تجريديته، مفهوم محايد إذ يلغي الذات والايديولوجيا. وعليه، فإن سوسير يهتم بإنتاج الدليل لا بالتعبير عنه.

2. مفهوم الدليل عند رولان بارط

باديء ذي بدء يُعْتَبَرُ رولان بارط أن الدليل يندرج ضمن سلسلة من المصطلحات المتقاربة والمتغايرة مثل العلامة *Signal* والأمانة *Indice* والرمز *Symbole* والمثال *allégorie*. وتشترك هذه المصطلحات في عنصر مشترك ذلك أنها جميعا تحيل، بالضرورة، على علاقة بين متعلقين *relata* (4). وحتى يتم التمييز بين هذه المصطلحات، لابد من اللجوء إلى ملامح أخرى يقدمها بارت على شكل بديل (حضور/غياب) (1) تتضمن العلاقة — أو لاتتضمن — التمثيل النفسي لأحد المتعلقين (2) تتضمن العلاقة — أو لا تتضمن — مشابهة بين المتعلقين (3) العلاقة بين المتعلقين (المثير والاستجابة) علاقة مباشرة أو غير

(2) نفسه ص. 31

(3) نفسه ص. 153 — 154، 162 — 167.

(4) *Eléments de Sémiologie in communications N°4 P.103*

مباشرة؛ (4) يتطابق المتعلقان تطابقا تاماً، أو على النقيض من ذلك، «يتجاوز» أحدهما الآخر؛ (5) تتضمن العلاقة — أو لا تتضمن — نسبة وجودية مع الشخص الذي يستعملها (5).

إن الدليل يتكون من دال ومدلول. ويشكل مستوى الدوال مستوى التعبير *plan de l'expression*، كما يشكل مستوى المدلولات مستوى المحتوى *plan de contenu*. ومن المعلوم أن يلمسليف Hjelmslev قد أدخل داخل كل مستوى من هذين المستويين تمييزاً يمكن، في رأي بارط، أن يكون مهماً لدراسة الدليل السيميولوجي. وهكذا، فإن كل مستوى يحتوي، بالفعل، بالنسبة ليلمسليف، على طبقتين: الشكل *Forme* والمادة *substance*. والشكل هو ما يمكن وصفه، بصفة شمولية وببساطة وانتظام، بواسطة اللسانيات دون اللجوء إلى مقدمات خارج — لسانية. ولأن هاتين الطبقتين توجدان في المستويين معاً، فإننا نحصل على:

(1) مادة التعبير: مثل المادة الصوتية والنطقية وغير الوظيفية التي يهتم بها علم الأصوات *phonétique* لا الصوتيات (الصوتية) *phonologie*؛ (2) شكل التعبير وتشكله القواعد الاستبدالية والتركيبية؛ (3) مادة المحتوى، ويتعلق الأمر، مثلاً، بالمظاهر الانفعالية والايديولوجية أو المفهومية للدليل؛ (4) شكل المحتوى، ويتعلق الأمر بالتنظيم الشكلي للمدلولات فيما بينها وذلك بواسطة غياب أو حضور سمة دلالية. (6).

ويعتقد رولان بارط أن التقسيم الفرعي: شكل/مادة يمكن أن يصبح من جديد مجدي الاستعمال وسهله، في السيميولوجيا، في الحالتين التاليتين (1) حينما نجد أنفسنا أمام نسق تتجسد فيه المدلولات في مادة أخرى غير مادة نسقها الخاص (مثال: التقلية *mode* المكتوبة)؛ (2) حينما يحتوي نسق من الأشياء على مادة غير دالة بشكل مباشر ووظيفي، غير أنه يمكنها أن تكون، في مستوى معين، نافعة لاغير: ذلك أن أكلة ما تستخدم للدلالة على حالة ما، لكنها تستخدم أيضاً للتغذية. (7).

وبناء على ما سبق، يمكن التنبؤ بطبيعة الدليل السيميولوجي بالنظر إلى الدليل اللساني. إن الدليل السيميولوجي يتكون، هو أيضاً، على غرار نموذج، من دال ومدلول (لون ضوء ما، مثلاً، هو عبارة عن أمر بالمرور في سنن المرور)، إلا أنه ينفصل عنه على مستوى المادة. ذلك أن العديد من الأنساق السيميولوجية (أشياء، إشارات، صور) ذات مادة للتعبير لا يوجد كيانها في الدلالة: ويتعلق الأمر، في الغالب، بأشياء صالحة

(5) نفسه. 103

(6) نفسه. ص 105 — 106

(7) نفسه. ص 106

للاستعمال يعمل المجتمع على اشتقاقها لغايات دلالية : فاللباس يستخدم للوقاية ، والطعام يستخدم للتغذية ، ويستخدمان معا أيضا للدلالة (8).
ويقترح بارط تسمية هذه الدلائل السيميولوجية ذات الأصل النفعي والوظيفي بالوظائف — الدلائل fonctions-signes. إن للوظيفة — الدليل قيمة أنثروبولوجية بحيث إنها الوحدة التي تنسج فيها علاقات التقني والذال (9).

أما بخصوص الاعتبارية ، فإنها ، في نظر بارط ، تطرح على السيميولوجيا مجموعة من المشاكل. ذلك أنه من الممكن من جهة ، إيجاد أنساق معللة motifs (أي مناسبة للطبيعة) إلى حد كبير ، فيجب ، آنذاك ، القيام بوضع الطريقة التي تكون فيها المشابهة موافقة للمنقطع discontinu الذي يبدو ، لحد الآن ، ضروريا للدلالة؛ وبعد ذلك كيف يمكن أن تقام السلاسل الاستبدالية حينما تكون الدوال متشابهات. ويتعلق الأمر ، هنا ، بالصور images. ومن جهة ثانية ، من المحتمل جدا أن يكشف الجرد السيميولوجي عن وجود أنساق غير خالصة تحتوي إما على تعليقات motivations جد مرتجلة وإما على تعليقات تتخللها اعتباريات ثانوية كما لو أن الدليل يعيش صراعا بين المَعْلَل وغير المَعْلَل. ويتعلق الأمر بالمنطقة الأكثر تعليلا في اللسان أي بالكلمات المناسبة للطبيعة (10).

3. مفهوم الدليل عند أمبرطو إيكو

سنغض الطرف عن تعريف إيكو للدليل وعن أنماط إنتاج الدلائل. ونخص بالحديث نوعاً واحداً من الدلائل.

يُميز أمبرطو إيكو الدلائل الطبيعية عن الدلائل غير القصدية. إن هناك نمطين من «الدلائل» التي يبدو أنها تخفي التعريف التواصلية ، وهما أ) الأحداث الطبيعية الصادرة عن مصدر طبيعي ، ب) السلوك الانساني غير الصادر بشكل قصدي من قبل المرسلين.

وهكذا فإنه من الممكن أن نستنبط من الدخان وجود النار... ومثل هذه الحالة هي حالة استدلال Inference. ومن الملاحظ أن حياتنا اليومية مملوءة بهذه الأفعال الاستدلالية. وعليه ، فإن هناك وجوداً لأفعال استدلالية ينبغي أن يُتعرّف عليها باعتبارها أفعالاً سيميوطقية.

ويمكن أن نخلص من ذلك إلى أن هناك دليلاً كلما قررت جماعة إنسانية استعمال شيء ما والتعرف عليه باعتباره ناقلاً لشيء آخر. وبهذا المعنى ، فإن الأحداث الصادرة عن

(8) نفسه. نفس الصفحة

(9) نفسه. ص 106 — 107

(10) نفسه. ص 111

مصدر طبيعي يمكن أن تُجَدْوَل باعتبارها دلائل لأن هناك تعاقدًا يفترض تَضَامُفًا correlation مُسَنَّنًا بين تعبير ومحتوى (11).

أما فيما يتعلق بالدلائل غير القصدية ، فإن الكائن الانساني ينجز أفعالاً يدركها أي كان باعتبارها وسائل علامية كاشفة عن شيء آخر ، حتى لو كان المرسل غير واع بالخاصية الكاشفة لسلوكه. والمثال النموذجي لذلك هو السلوك الاشاري gestual behaviour. ولابد من القول هنا إن وراء إشارة الكائن الانساني قصداً دالاً عميقاً (12). وباختصار ، فإن أي شيء يمكنه أن يُفهم باعتباره دليلاً إذا ما وُجِدَ تعاقد يسلم بتعويضه لشيء آخر ، أما إذا كانت بعض الاستجابات السلوكية غير ظاهرة بواسطة تعاقد ما ، فإن المثيرات لا يمكن أن يُنظَر إليها باعتبارها دلائل (13).

وبخصوص مسألة الاعتبارية ، يرى أمبرطو إيكو أن الدلائل القائمة على المشابهة (مثل آثار الأقدام وعلامات المرور...) تبلغ شيئاً معيناً بالنظر الى نسق التعاقدات أو نسق التجارب المكتسبة. وهكذا ، فمن الآثار المرسومة على الأرض أستنبط حضور حيوان إذا كنت قد تعلمت وضع علاقة تعاقدية بين هذا الدليل وهذا الحيوان (14). وبذلك يؤكد أمبرطو إيكو أن كل الظواهر المرئية التي يمكن تأويلها كإشارات indices يمكن اعتبارها دلائل تعاقدية (15). إن الدلائل الأيقونية iconiques لا تملك خاصيات الشيء المُمَثَّل له ، وهي لا تستنسخ إلا بعض شروط الإدراك المشترك (16). وهكذا ، فالدليل الأيقوني يمكن ، إذن ، أن يحتوي ، من بين خاصيات الشيء ، على الخاصيات المرئية والخاصيات الوجودية (الأنطولوجية) والتعاقدية (17).

4. مفهوم الدليل عند باختين وشاروودو

إذا كان تعريف الدليل ، عند سوسير ، تعريفاً تجريدياً ، فإن تعريف ميخائيل باختين يرتبط ارتباطاً صميمياً بالفعل السيميائي ، لغوياً كان أم غير لغوي. فالدليل يتناسب والايديولوجيا ، فحيث يوجد الدليل توجد كذلك الايديولوجيا (18). وليس كل دليل ايديولوجي انعكاساً للواقع وظلاً له فحسب ، وإنما هو أيضاً قطعة مادية من هذا الواقع...

A theory of sémiotics P. 16—17 (11)

(12) نفسه ص 17 — 18

(13) نفسه ص 19

La structure absente P. 173 (14)

(15) نفسه. نفس الصفحة

(16) نفسه. ص 176

(17) نفسه. ص 180

Le marxisme et la philosophie du langage P. 27 (18)

من جهة نظر الممارسة. أما الطرف الأول فلا يعدو أن يكون مظهراً إجرائياً نظرياً إذ بواسطته يتم تحديد الوحدات.

وفي نفس الإطار، يرى شارودو أن الدليل ليس عبارة عن «وحدة معنى مستقلة» لأنه ممتلئ أيضاً بمعرفة تتعلق بكل فعل كلامي. ولذلك، «فلا وجود للدليل في اللسان»، بل إنه «لا يوجد إلا في الخطاب» (24). إن للدليل قيمة مزدوجة: فالدليل اللساني يُمثّل أمامنا، من جهة نظر محتوى معناه، باعتباره كيفية مرجعية وظيفية. وتُسْتَخْرَجُ الكيفية المرجعية من قيمة الدليل التعيينية التي تسند معنى إلى جزء من العالم الطبيعي... أما الكيفية الوظيفية فتُسْتَخْرَجُ من قيمة الدليل الاستعمالية والخاضعة لعالم خطائي معين. وخلاصة الأمر تقتضي بالأبداً وجود لأحادية معرفة للدليل معين وأبداً وجود لتعددية معرفة حول دليل معين، وإنما هناك تعددية معرفة لأننا نواجه عدة دلائل (25).

5. مفهوم الدليل عند تشارلز سندرلر بورس C.S Peirce

قبل تقديم تعريف الدليل عند بورس لا بد، أولاً، من تقديم تحليل المقولات العامة التي يقوم عليها تعريفه للدليل. وفي هذا المضمار، يميز بورس ثلاثة عوامل تتميز فيما بينها بواسطة ثلاث نمطيات يَتَلَبَّسُهَا الوجود وهي:

1 — العالم الأول ويشتمل على كل شيء يوجد وجوده فيه، إلا أن ما يوجد في هذا العالم ينبغي أن يكون حاضراً في ذهن وحيد أو يمكنه أن يكون حاضراً على تلك الهيئة بوجوده الكلي. ويطلق بورس على أشياء هذا العالم: الأفكار Idées أو الممكنات Possibles. ويُشْتَرَطُ في هذه الأفكار أو الممكنات أن تكون مهمة (26). إن الأمر يتعلق، إذن، بنمط وجود الامكان الكيفي الموجب (27). والأولية Priméité التي تطلق على هذا العالم هي: «نمط الوجود الذي يكمن في أن ذاتاً هي ماهي بشكل موجب دون اعتبار أي شيء آخر. ولذلك فلا يمكنها أن تكون غير الامكان possibilité (28). فالحمرة، مثلاً، قد كانت، قبل العثور على شيء أحمر في الكون، عبارة عن إمكان كيفي موجب. إن الحمرة في ذاتها، حتى لو تجسدت، هي بمثابة شيء موجب وخصوصي (29).

(24) Eléments de sémiolinguistique P. 26

(25) نفسه. ص 27

(26) Ecrits sur le signe P.51

(27) نفسه ص 69

(28) نفسه ص 70

(29) نفسه. نفس الصفحة

وهذا المعنى، فواقعية الدليل واقعية تامة الموضوعية. إن الدليل عبارة عن ظاهرة من العالم الخارجي إذ يظهر، مع الآثار التي يحدثها، في التجربة الخارجية (19). إن الدلائل لا يمكن أن تظهر إلا في حقل تفاعل الأفراد، أي في التواصل الاجتماعي. وبذلك، فوجود الدلائل ليس أبداً غير التجسيد المادي لهذا التواصل (20). ومن ثمة، يخلص باختين إلى ثلاث قواعد منهاجية هي:

- 1 — عدم فصل الايديولوجيا عن الواقع المادي للدليل،
- 2 — عدم عزل الدليل عن الأشكال الملموسة للتواصل الاجتماعي،
- 3 — عدم عزل التواصل وأشكاله عن أساسهما المادي (21).

إن باختين لا يعتبر الدليل حيادياً. ويعني ذلك أن الذات لا تستعمل الدلائل استعمالاً نحويًا وتقنيا خالصين ذلك أن الدليل شديد الارتباط بالموقع الاجتماعي الذي يندمج فيه أي بالمقام والوسط الاجتماعي. واعتماداً على ذلك، يستعمل المخاطب اللغة لتأدية أغراضه القولية الملموسة ذلك أن «بناء اللغة مُوجَّهٌ نحو فعل القول enonciation ونحو الكلام». إن المخاطب يستعمل الأشكال المعيارية في سياق ملموس معطى. فما يهمه، إذن، هو ما يسمح للمشكل اللساني بالتجسيد في سياق معطى، وهو ما يجعل من هذا الشكل دليلاً مطابقاً في شروط مقامية ملموسة معطاة. وبالنسبة لباختين، فإنه لا أهمية للشكل اللساني كعلامة signal ثابتة ومساوية لنفسها دائماً. وإنما تكمن أهميته في كونه دليلاً متغيراً باستمرار ومرناً (22).

كما أن ما يهم المخاطب هو فَهْمُ الشكل اللساني في سياق ملموس محدد وفهم دلالاته في فعل قوليّ مُعْطَى، أي أن الأمر يتعلق بإدراك خاصيته الجديدة لا مطابقته للمعيار فحسب. إن العنصر الذي يجعل من الشكل اللساني دليلاً هو قابليته للتغير الخاص وفهم الكلمة في معناها الخاص، أي الإمساك بالاتجاه الذي أُسْنِدَ إلى الكلمة من قبل سياق ومقام محددين (23).

وعليه، فلا يمكن لأي خطاب أن يُدرَسَ خارج الايديولوجيا وخارج بنية فعل القول لأن الشكل اللساني شكل مطوّاع تبعاً لإرادة المخاطب أو تبعاً لتأويل المخاطب أو وفق شروط إنتاج الكلام وشروط تأويله وفهمه الخارج — لسانية.

وباختصار، فإن الدليل ليس كياناً مجرداً، وإنما هو كيان ملموس، أو أنه كيان مزدوج: فهو مجرد من جهة وملموس من جهة ثانية. غير أن طرفه الملموس هو الطرف الأهم

(19) نفسه. نفس الصفحة.

(20) نفسه. ص 31

(21) نفسه. ص 41

(22) نفسه. ص 99

(23) نفسه ص 100 — 101

يُسندُ بورس الأولية الى موضوعات خارجية أي أنه يفترض أن لها في ذاتها طاقات يمكنها ، أو لا يمكنها ، أن تتَحَيَّن actualisées (30) . إن الأول Le premier هو الوجود في ذاته و«لا يحيل على أي شيء ولا يستلزمه أي شيء» (31) . وبذلك ، فالأول ينبغي أن يكون حاضرا ومباشرا وطريا وجديدا واستهلاليا initial وأصليا وعفويا وحرا وحيويا وواعيا . إنه سابق على أي توليف synthèse وأي تمييز ، ولا يملك وحدة ولا أجزاء ، ولا يمكن أن يُفَكَّر فيه بصورة متمفصلة (32) .

إن الأول هو الوعي المباشر (33) .

وتشتمل هذه المقولة الأولى على كيفيات الظواهر مثل : أحمر ومر ومُتَعَب وصلب (أوشاق) ومؤسف ونبييل... (34) والأولية هي مقولة الاحساس Sentiment والكيفية qualité (35) .

2- العالم الثاني وهو ، أولا ، عالم الموضوعات objets التي يكمن وجودها في ردود أفعالها الخام ، وهو ثانيا عالم الوقائع (الأفعال والأحداث والكيفيات الخ...) المتعلقة بهذه الموضوعات . والموضوعات ، عند بورس ، هي الأشياء أو ، بصورة أقل التباسا ، الموجودات Existants ، ويطلق بورس على الوقائع التي لها صلة بالموضوعات الوقائع (36) . إن هذا النمط هو نمط وجود موضوع ثان ، ويتعلق الأمر بالتحيين ، ويبدو تحيين الحدث كامنا في علاقاته مع عالم الموجودات ذلك أن هذا التحيين يشترط حدوث واقعة في مكان وزمان معينين (37) .

إن الثاني Second هو المطلق الأخير ، وهو ، بشكل أدق ، مالا يمكن أن يكون بدون الأول ، ويوجد في الوقائع بصفته غَيْرِيًّا وعلاقة ووجوبا وأثرا وتعلقا واستقلالية ونفيا ووروداً occurrence وواقعا ونتيجة . ولا يمكن لأي شيء أن يكون غيريا وسالبا أو مستقلا بدون أول premier يصبح هذا الشيء ، بالنسبة إليه ، غيريا وسالبا أو مستقلا . إن الثاني يتحدد وَيَتَرَسَّخُ بواسطة الأول . ونعثر على الثانوية Secondité في الوجود occurrences (38) . إن الثاني هو الشيء الميت الخارجي (39) .

(30) نفسه. نفس الصفحة

(31) نفسه. ص 72

(32) نفسه. ص 72 — 73

(33) نفسه. ص 76

(34) نفسه. ص 80

(35) نفسه. ص 83

(36) نفسه. ص 52

(37) نفسه. ص 69 — 70

(38) نفسه. ص 73

(39) نفسه. ص 76

هكذا يبدو أن المقولة الثانية تتضمن الوقائع المجسدة ، ذلك أن الحدث فردي لأنه يقع هنا والآن . وتتعلق الوقائع بالذوات التي هي جواهر مادية (40) . إن الثانوية Secondité هي مقولة التجربة والصراع والواقعة (41) .

3 — العالم الثالث ويحتوي على تَكَاثُر co-etre كل ماهو ضروري بطبيعته أي العادة أو القانون أو أي شيء قابل لأن يُعَبَّر عنه في قضية كلية . ويطلق بورس على موضوعات هذا العالم الضروريات Nécessitants ، ويشمل كل ما يمكننا معرفته حينما نفكر منطقيا (42) . ويتحكم ، إلى حد ما في الواقع ، قانون في الأحداث المستقبلية ، وإذن فإن لهذه الأحداث نزوعا نحو التوافق مع قاعدة عامة . إن ما يطلق عليه بورس الثالثة Tiercéité هو نمط الوجود الذي يكمن في أن الوقائع المستقبلية للثانوية ستكتسي طابعا عاما محددا (43) . إن الثالث le troisième هو ما يربط بين الأول والأخير المطلقين وينسج بينهما علاقة (44) . إنه التمثيل المتوسطي بين الأول والثاني (45) .

إن المقولة الثالثة تحتوي على ما نسميه بالقوانين حينما نتأملها من الخارج فحسب ، أما حينما نرى وجهي الميدالية ، فإننا نسميها بالأفكار . والفكرة عامة (46) . إن الثالثة هي مقولة الفكر pensée والقانون Loi (47) .

اعتمادا على هذه المقولات الثلاث يؤسس بورس مفهومه للدليل . والدليل ، عنده ، عبارة عن شيء ما يُعَوَّضُ شيئا معينا بالنسبة لشخص معين وفق علاقة معينة أو صفة معينة . إن الدليل مُوجَّهٌ إلى شخص معين أي أنه يخلق في ذهن هذا الشخص دليلا معادلا أو دليلا أكثر تطورا يسميه بورس مُؤَوَّلًا Interprétant للدليل الأول . ويُعَوَّضُ هذا الدليل شيئا معينا هو ما يسميه بورس بموضوع Objet الدليل (48) .

إن الدليل هو كل ما يَبْلُغُ تصورا محددا عن موضوع (49) ، وهو كل ما يحدد شيئا ما آخر (مؤوَّلُه) ليحيل على موضوع يحيل عليه هو نفسه (موضوعه) بنفس الشكل ، ويصبح المؤول بدوره دليلا وهكذا دواليك (50) . والدليل أو الممثل representamen هو بمثابة أول ينسج

(40) نفسه. ص 81

(41) انظر ص 92 — 97 من المرجع السابق

(42) نفسه. ص 52

(43) نفسه. ص 70 — 71

(44) نفسه. ص 74

(45) نفسه. ص 76

(46) نفسه. ص 82

(47) انظر ص 98 — 105 من نفس المرجع

(48) نفسه. ص 121

(49) نفسه. ص 116

(50) نفسه. ص 126

علاقة مع ثان يسمى موضوعه ، وهي علاقة ثلاثية أشد أصالة بحيث يمكنها تحديد ثالث يسمى مؤوله ، وذلك بأن ينسج مع موضوعه نفس العلاقة الثلاثية التي ينسجها هو ذاته مع هذا الموضوع ذاته (51). وهذه الذات التي تمثل يطلق عليها بورس الدليل أو الممثل (52). ويعرف بورس الممثل باعتباره ذاتاً لعلاقة ثلاثية مع ثان يسمى موضوعه بالنسبة الى ثالث يُسمَّى مؤوله. وهذه العلاقة الثلاثية هي ما عليه بحيث إن الممثل يحدد مؤوله وذلك بأن ينسج نفس العلاقة الثلاثية مع نفس الموضوع بالنسبة الى مؤول ما (53). فالممثل هو كل ما ينطبق عليه التحليل حينما نرغب في اكتشاف حقيقة الدليل في الجوهر (54).

إن الممثل يمثل شيئاً معيناً. وهو الصورة الصوتية أو الصورة المرئية إذا كان الأمر يتعلق بكلمة معينة. ولأنه أول ، فهو عَمَادُ الدليل بما هو دليل بغض النظر عن علاقته مع موضوعه. إنه ناقل الدليل من زاوية مظهره الثاني (55). والعماد ، بالنسبة لبورس ، هو جهة النظر أو الطابع الخصوصي للذين يؤول بموجبهما الدليل — الناقل بوصفه دليل موضوعه. إلا أن العماد ليس الدليل — الناقل لأن للدليل — الناقل عدة خاصيات غير مميزة فيما يتصل بوظيفته كدليل. ومن شأن المثال التالي أن يسمح لنا بتوضيح ما يتوخى بورس إيصاله الى الأذهان : يمكنني أن أستخدم عَيِّنَةً من الألوان دليلاً للون الصباغة التي أود اقتنائها ، ويمكن لهذه العينة أن تكون مربعة أو مستديرة. ويمكنها أن تكون من ورق أو من مادة لينة. هذا كله ليس مميزاً بالنظر الى وظيفة العينة في الدليل. فلون العينة وحده هو الذي يشكل العماد لأن اللون هو جهة النظر التي يمكن ، بفضلها ، تأويل العينة كدليل للون الصباغة التي أود اقتنائها (56).

وأما موضوع الدليل فهو غير مجسد ، وهو ضروري لتبليغ أي إخبار (57). ويمكنه أن يكون قابلاً للادراك أو قابلاً للتخيل فحسب بل وغير قابل له (58). إن الموضوع هو ما يمثله الدليل. وهو ليس بالضرورة شيئاً أو حدثاً أو وضعاً ما ، ولا يعرف الممثل بالموضوع ولا يتعرف عليه (59).

(51) نفسه ص 147

(52) نفسه ص 116

(53) نفسه ص 117

(54) نفسه ص 116

(55) Deledalle. théorie et pratique du signe P. 66

(56) Savan. la séméiotique de C.S. Peirce in langages 58 P. 13

(57) Ecrits sur le signe P. 123-124

(58) نفسه ص 122

(59) Deledalle. Théorie p. 66-67

Ecrits sur le signe P. 128 — 130

أما المؤول فهو التوسط بين الممثل والموضوع. إنه المدلول الخاص للدليل والحصيلة أو الأثر (60). وتجدد الإشارة هنا إلى أنه لا ينبغي الخلط بين المؤول والشخص الشارح interprète لأن الدليل عند بورس يحيل على دليل.

نخلص من هذا التعريف للدليل إلى أن الدليل البورسي عبارة عن شبكة من العلاقات تنقاد الى أن تُحلَّل إلى أطراف ثلاثة في الأبعاد الأساسية لهذه العلاقات. وهكذا سيكون الدليل ، بالنسبة الى بورس ، حصيلة علاقة بين ثلاثة أطراف (61). إن الدليل ، «منظوراً إليه في ذاته» ، أداة ممكنة لانجاز الدلالة والتواصل ، ولا ترق هذه الأداة أو «الممثل» ، في الحقيقة ، الى غائيتها السيميوطيقية إلا بفضل علاقة دقيقة مع «موضوع» معين ، أي ذلك الذي يحيل عليه الدليل. إلا أنه لا يمكن لأي دليل معين لموضوع أن يخبرني بأي شيء عن هذا الموضوع اعتماداً فقط على خاصياته وعلى علاقته مع الموضوع وحدها. ولكي يكون بمقدور الدليل تحقيق هذه الدلالة وهذا التواصل ، فإن عليه أن يستدعي طرفاً ثالثاً هو مؤوله (62). ويتضح من ذلك أن الممثل يشكل مستوى الأولية ، وأن الموضوع يشكل مستوى الثانوية ، بينما يشكل المؤول مستوى الثالثية. وإذا أردنا أن نمثل لذلك ، سنقول مع أنريكو كارانتيني Enrico carontini : إن الدليل اللفظي «أب» باعتباره أداة (مثلاً) هو مجموعة من الأصوات المُبَيِّنَةُ بشكل مخصوص. ولا يمكن لهذه الأصوات أن تعيّن لي شيئاً آخر سواها إلا بمقدار إحلالها محل شيء آخر — إحلالها محل تصور دقيق هو تصور الأب. وإذا ما بقيت داخل هذه العلاقة البسيطة بين مجموعة من الأصوات وتصور ، فإنه لن يكون باستطاعتي أبداً أن أفهم ، في الحقيقة ، دلالة هذا التصور. فلا بد من أن أُلْجَأ ، إذن ، إلى مجموعة متعددة ومعقدة من الدلائل الأخرى ، أي تلك المجموعة من الدلائل التي تُعرِّف ، في لغة محددة ، علاقات القرابة. إن هذه الوحدة الاستبدالية اللسانية هي التي تشكل مؤولاً من مؤولات الدليل «أب» (63).

وفيما يتعلق بالموضوع يميز بورس موضوعين : موضوع غير مباشر médiat وموضوع مباشر immédiat. والموضوع غير المباشر هو الذي يوجد خارج الدليل ، بينما يوجد الموضوع المباشر داخل الدليل. إن الموضوع غير المباشر هو الموضوع الموجود خارج دليل ما ويسميه بورس الموضوع الدينامي dynamique الذي على الدليل أن يشير إليه تلميحاً. وهذا التلميح ، أو مادته ، هو الموضوع المباشر. ويمكن القول إن كلا من الموضوعين قابل لأن يتلبس نمطاً من الأنماط الثلاثة ، بحيث يمكن للموضوع الدينامي أن

(61) Carontini. l'action du signe P.8

(62) نفسه. نفس الصفحة

(63) نفسه. ص 8 — 9

يكون ممكنا (64)، وفي هذه الحالة، يكون الدليل تجريديا. مثال ذلك كلمة جَمَال. وحينما يكون الموضوع الدينامي بمثابة ورود (أي شيء موجود أو واقعة واقعية أو مستقبلية)، فإن الدليل يسمى بالدليل الملموس. مثال ذلك السرد المكتوب بخصوص سلسلة من الأحداث. أما إذا كان الموضوع الدينامي للدليل ضروريا necessitant، فإن الدليل جماعي Collectif (65). وإذا كان الموضوع المباشر «ممكنا» possible، أي إذا كان الموضوع الدينامي معينا بواسطة كيفياته، فإن الدليل وصفي descriptif؛ وإذا كان الموضوع المباشر ورودا، فإن الدليل تعييني désignatif؛ وإذا كان الموضوع المباشر ضروريا necessitant، فإن الدليل رابطي copulant (66).

إن الموضوع الدينامي، إذن، موضوع يوجد خارج الدليل، أي أنه ليس معطى، بشكل مباشر، في الممثل وإنما هو حصيلة معرفة حصلنا عليها بفضل عمليات سيميوطيقية سابقة أخرى (67). ويمثل بورس لذلك بـ «الشمس زرقاء» التي تحتوي على موضوعين: الموضوع الأول هو الشمس التي ينبغي على المتكلم والمتلقي أن يكونا على دراية مسبقة بشيء منها حتى يمكنهما الحديث عنها (الطبيعة الفلكية والفيزيائية للشمس وعلاقتها بالأرض والنظريات المختلفة التي تحدد نمط هذه العلاقة + ماقاله الشعراء عن الشمس. الشمس تلمع وتدفع، تغيب أحيانا، تبرز في الصباح لتغيب في المساء، الخ...). إن هذه المجموعة من المعارف وغيرها المتعلقة بموضوع الشمس تشكل الموضوع الدينامي لهذه القضية proposition. أما الموضوع الثاني أي كون الشمس زرقاء، فهو معرفة فورية تضاف إلى مجموعة معارفنا المذكورة سابقا. وهذا الموضوع الثاني، أي صفة الزرقة (واقعية أو متخيلة) هو ما يشكل الموضوع المباشر. إنه ما يضيفه الممثل بفضل توسط المؤول من معرفة إضافية إلى الموضوع (68).

كما أن المؤول، عند بورس، ينقسم إلى عدة أقسام:

□ فهناك، أولا، المؤول المباشر والذي هو المؤول على غرار ما كشف عنه الفهم الصحيح للدليل نفسه، وهوما يسمى، عادة، بدلالة الدليل (69).

□ وهناك، ثانيا، المؤول الدينامي والذي هو الأثر الواقعي الذي يحدده الدليل، بصفته دليلا، بشكل واقعي (70).

Ecrits sur le signe P. 53 (64)

(65) نفسه. ص 53 — 54

(66) نفسه. ص 54

Carontini. L'action du signe P. 30 (67)

(68) نقلا عن Carontini ص 30 — 31

Ecrits sur le signe P. 189 (69)

(70) نفسه. نفس الصفحة

□ وإلى جانب هذين النوعين، أفرز بورس مؤولا آخر سماه بالمؤول النهائي الذي يحيل على الطريقة التي ينزع الدليل، بفضلها، إلى تمثيل نفسه بنفسه باعتباره في علاقة مع موضوعه (71). ولا يمكن للنهائي أن يكون دليلا بل هو عادة (72).

□ وإلى جانب هذه الأنواع الثلاثة، هناك المؤول المنطقي ويتعلق الأمر بالدليل الذهني. وهكذا، إذا كان هذا الدليل من نوع عقلي — وهو كذلك بالضرورة — فإنه ينبغي أن يكون له مؤول عقلي (73). وعليه، فإن كل التصورات وكل القضايا propositions العامة هي المؤولات المنطقية الأولى (74). ويتسم المؤول المنطقي بكونه عاما بخصوص إمكانات إحالته، وتتجمع الوقائع الذهنية ذات الاحالة العامة في الفئات التالية: التصورات والرغبات (بما فيها الآمال والتخوفات... الخ) والانتظار والعادات (75).

□ وهناك أيضا، المؤول العاطفي affectif ذلك أنه يوجد دائما إحساس تنتهي إلى تأويله باعتباره برهانا عن فهمنا الأثر الخاص للدليل. ويمكن أن يكون هذا المؤول العاطفي أكثر بكثير من ملكة التعرف هذه؛ وفي بعض الحالات، يكون المؤول العاطفي هو الأثر الوحيد المدلول الخاص الذي ينتجه الدليل (76).

□ وأخيرا، هناك المؤول الطاقوي énergétique: فإذا أنتج دليل أثرا آخر مدلولا مخصوصا، فإنه سينتجه بواسطة المؤول العاطفي. ومن الملاحظ أن هذا الأثر الجديد يستلزم دائما جهدا معينا. ويمكن لهذا الجهد أن يكون عضليا إلا أنه يُمارس، في الغالب، على العالم الداخلي، فيكون بذلك جهدا ذهنيا. ولا يمكنه أن يكون، أبدا، دلالة تصور عقلي لأنه فعل مخصوص بينا التصور ذو طبيعة عامة (77). إن تصور هذه المؤولات الستة مرتبط بالمقولات الثلاث إذ يحيل كل مؤول على مقولة. فالمؤول المباشر والمؤول العاطفي يحيلان على الأولية، والمؤول الدينامي والمؤول الطاقوي يحيلان على الثانوية، والمؤول النهائي والمؤول المنطقي يحيلان على الثالثية (78).

ويعرّف بورس اشتغال المؤول وفق سيرورة ذات ثلاثة أبعاد متنافرة ومتكاملة فيما يرى انريكو كارانتيني مقتصرًا على شرح المؤول المباشر والمؤول الدينامي والمؤول النهائي. فالمؤول المباشر أو المؤول الممثل في الدليل بشكل مباشر يشكل نقطة انطلاق هذه السيرورة. إن

(71) نفسه. نفس الصفحة

Deledalle. commentaire in Ecrits sur le signe P. 220 (72)

Ecrits sur le signe P. 130 (73)

(74) نفسه ص 131

(75) نفسه. ص 135

(76) نفسه. ص 130

(77) نفسه. نفس الصفحة

Deledalle. commentaire in Ecrits sur le signe P. 221 (78)

المؤول المباشر هو ذلك الذي يسمح بـ «إطلاق» الممثل في سيرورة العملية الترميزية. إنه لا يقترح أية معرفة، إلا أنه يسمح بإدخال الممثل في حركة التأويل. فهو يقول لنا بخصوص دليل رسمي pictural، لوحة مثلا، إننا أمام رسم له هذه الخاصية أو تلك اللتان ينبغي أن تُفهمًا حسب هذه الاحالة أو تلك. إن المؤول المباشر يجعلنا نتعرف على الممثل كممثل ويفتح أمامنا الطريق نحو مؤولات أكثر تعقيدا (79).

أما المؤولات الدينامية فهي مؤولات أكثر تعقيدا. وهي التي توفر المعلومات الضرورية لتأويل الدليل التأويل الحق. إن العلاقة التي يسمح المؤول الدينامي بوضعها بين الممثل والموضوع يمكن، بالفعل، أن تتنوع وفق إذا ما كان الموضوع مباشرا أو ديناميا. ففي الحالة التي يكون فيها الموضوع مباشرا، فإن المؤول الدينامي لا يوفر غير الوقائع التي لها علاقة بالدليل نفسه. وتعبير آخر، لا يوفر المؤول الدينامي ذو العلاقة المباشرة مع الموضوع المباشر غير المعارف التي بمقدورها أن تكشف عما يود الدليل قوله عن موضوعه المباشر. وإذا استعدنا نفس المثال السابق، فإن الأمر يتعلق بفهم ما يدل عليه كون الشمس زرقاء، وتبين إذا ما كان الأمر يتعلق باستعارة تعبر عن الحالة النفسية للمرسل أو أنه يتعلق بطريقة تصويرية للقول بأن اليوم حزين، الخ... إلا أن المؤول الدينامي يمكنه أن يربط الممثل بالموضوع مغترفا معلوماته من سياق المعارف القبلية للموضوع. ففي حالة الموضوع الدينامي، يغترف المؤول الدينامي معلوماته من نفس سياق الموضوع مهما كان بعده. وفي هذه الحالة، يمكن، إذن، للمؤول الدينامي أن يشغل مثل كل المعارف السابقة للموضوع أي مجموع المعارف العلمية والشعرية والأسطورية التي لها صلة بالشمس ويمكنها أن توضح بشكل أفضل هذه المعرفة الخصوصية التي تقضي بإسناد الزرقة إليه (80).

ولا بد من الإشارة هنا إلى أن المؤول الدينامي يبقى بطبعه سيرورة لا تنتهي. وبغية توضيح المؤول النهائي وشرحه، يرى كارانتيني ضرورة القيام بتفسير العملية المنطقية لكل من الافتراض abduction والاستقراء induction. وهكذا، فإن عملية الافتراض تقضي بالاعتراف بأن التجربة التي أواجهها تجربة قابلة للفهم انطلاقا من معارفي السابقة. ويتعلق الأمر في الواقع، بتطبيق مقولة «قبلية» على حالة نوعية بشكل ميكانيكي إلى حد ما. إننا لا نتج، مع الافتراض، فعلا معرفيا حقيقيا، وإنما تقتصر فقط على التعرف على الموضوع. والمعرفة، هنا، تُواجه مع نمط تجربة جديدة ليس في مقدور المقولات المتمثلة سابقا أن تقدم جوابا مُرضيا. إن هذه التجربة الجديدة يجب عليها أن تولد مقولات جديدة ستُعني المقولات السابقة الوجود (81).

إن المؤول النهائي هو، بالفعل، مؤول نسقي. ويمكنه أن يتخذ ثلاثة أشكال حسب إذا ما كان نسق التأويل قد وضعه الافتراض أو وضعه الاستقراء أو الاستنباط déduction. ففي الحالة الأولى، فإن المؤول النهائي الأول عبارة عن عادة عامة تم اكتسابها بواسطة التجربة. وهي تجربة جماعية أكثر منها فردية. إنها عادة تأويل الدلائل في لحظة معطاة وفي فئة معطاة. أما المؤول النهائي الثاني، فهو عادة مخصصة مثل قدرة عالم النباتات على تصنيف نبتة جديدة... الخ. ويختلف المؤول النهائي الأول عن المؤول النهائي الثاني لا لأنه عادة عامة فقط، بل لأنه ليس مُراقبا بشكل علمي أي بشكل تجريبي، على عكس العادة المخصصة. إن المؤول النهائي الأول يعود إلى التعميم الذي يمكنه أن يكون صحيحا، إلا أنه يكون كذلك بدون إثبات مضاد. وتندرج في هذه الحالة كل الأفكار المسبقة العنصرية والدينية والذهنية وكل الأيديولوجيات.

أما المؤول النهائي الثالث فهو المؤول النسقي بامتياز. إنه خارج السياق: إذ لا يكتسب أية تجربة لكي يوجد. فهو، على مستوى القرار، استنباطي كما هو حال كل الأنساق الشكلية، سواء كان ذلك انطلاقا من المؤول النهائي الثاني مثل حالة الفرضيات الكبرى الفيزيائية، أو كان انطلاقا من المؤول النهائي الأول مثل النظريات البنيوية ونظريات التحليل النفسي (82).

وبغية فهم هذه النسقية التي اقترحها دولودال Deledalle فهما جيدا، لابد، في رأي كارانتيني، من شرح الميكانيزمات الأساسية لعملية المعرفة عن طريق الاستدلال والتي هي الاستقراء والاستنباط والافتراض. فالاستقراء يستبدل على قاعدة انطلاقا من حالات خاصة. فإذا كان شيء ما صادقا بالنسبة لعدد مهم من الأشخاص، فهو صادق بالنسبة للفئة كلها التي ينتمي إليها هؤلاء الأشخاص. أما الاستنباط فيحدث حينما ننطلق من مجموعة من المعارف النسقية والصارمة المكتسبة بواسطة عملية الاستقراء المنطقية، ويحدث الاستنباط حينما يمكننا التوصل إلى معارف جديدة دون اللجوء إلى تجارب جديدة.

إن الاستنباط هو تطبيق قاعدة عامة على حالة خاصة. أما الافتراض فيحدث، حسب تأويل دولودال، حينما نفترض أن حالة هي بمثابة تطبيق قاعدة عامة وحينما نبني هذا الافتراض دون التحقق منه (83).

ومهما كانت هذه المؤولات، فإن غائية هذه العملية (عملية المؤول) تكمن في وضع معنى، أي إسناد موضوع إلى مثل... (84).

(82) Deladalle. théorie et pratique du signe P. 120 — 121

Carontini. l'action du signe P. 35 (83)

Bruzy et autres. la sémiotique phanéroscopique de charles S. Peirce. In langages (84)

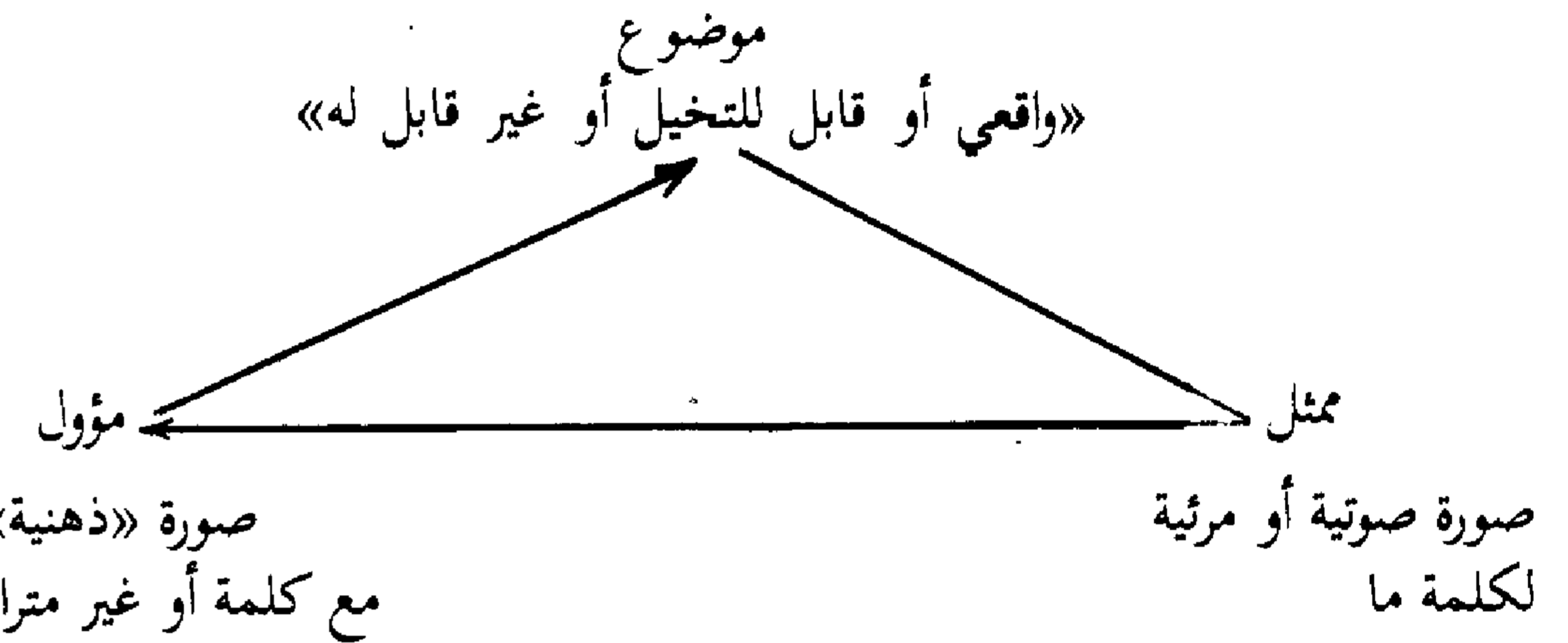
N°58 P. 39

Carontini. l'action du signe P. 31 (79)

(80) نفسه ص 31 — 32 وانظر أيضا P. 120 Deledalle. Théorie et pratique du signe

Carontini. l'action du signe P. 33 (81)

يتشكل الدليل، عند بورس، كما هو واضح، من علاقة ثلاثية. ويمكن أن تمثل له بالرسم الذي وضعه دولودال (85) :



ويعتبر مفهوم الدليل البورسي حول ما يسميه بالسيميويزيس Sémiotosis. والسيميويزيس عبارة عن فعل أو تأثير يستلزم تعاون ثلاث ذوات مثل الدليل وموضوعه ومؤوله. ولا يمكن لهذا التأثير الثلاثي العلاقة أن يكون، بأي شكل من الأشكال، قابلاً لأن يختزل إلى أفعال بين أزواج paires (86). ويُمارَس فعل الدليل إما في العالم الداخلي — عالم الفكر — وإما في العالم الخارجي. ويعتبر فعل الدليل، في العالم الخارجي، دليلاً وحاملاً للمعنى، بينما يعتبر، في العالم الداخلي، رمزا symbole وحاملاً للدلالة (87). ومن المفيد هنا أن نلاحظ مع كارانتيني أن فعل الدليل أو السيميويزيس الذي يشكل، في كل استلزاماته وتصنيفاته المتعددة، الموضوع الرئيسي لكل الأبحاث البورسية، ينبغي أن يُفهم في إطار المقولات العامة التي توضح اشتغال الوجود وأنماطه الخاصين بكل التجربة الإنسانية. فما يجربه الإنسان وما ينتجه ينبغي أن يُفهم باعتباره حصيلة تفاعل دقيق بين ثلاثة مستويات خصوصية (88) أي الأولية والثانوية والثالثية. واضح أن مفهوم الدليل يقوم على علاقة ثلاثية لا يمكن، أبداً، اختزالها إلى علاقة ثنائية. وهذه العلاقة الثلاثية المشكّلة من ثلاثة مكونات علاقة أصيلة، عند بورس. والعلاقة الثلاثية علاقة شكلية إذ ليس هناك، في ممارسة الدليل، موضوعٌ للحالة وإنما هناك اثنان، وليس هناك مؤول وإنما هناك ثلاثة مؤولات (89).

Deledalle. commentaire in Ecrits sur le signe P. 229 (85)

Ecrits sur le signe P. 133 (86)

Deledalle, commentaire in Ecrits... P. 223 (87)

Carontini, l'action du signe P. 6 — 7 (88)

Deledalle. théorie... P. 69 (89)

إن أي دليل لا يمكنه إلا أن يكون حصيلة علاقة بين ثلاثة أطراف. وهنا لا بد من القول بأن هذه البنية العلاقية للدليل تنعكس، أيضاً، على مستوى المكونات المختلفة للدليل؛ وهكذا يمكن أن يحل كل من الممثل والموضوع والمؤول في أوليته وثانويته وثالثيته. وهذا ما يسميه بورس بثلاثيات الدليل (90).

لقد صنف بورس الدلائل إلى ثلاثيات باعتبار أن الدلائل قد تكون أولية أو ثانوية أو ثالثية. ذلك أن الممثل (م) والموضوع (و) والمؤول (أ)، باعتبارها هي أيضاً دلائل، قابلة لأن تحل إلى ممثل وموضوع ومؤول (91).

1 — البعد الأول وهو بعد الممثل، ويحيل على الدليل بما هو دليل. إنه البعد النحوي حسب بورس أو التركيبي حسب تشارلز موريس Charles Morris (92). ويتعلق الأمر، هنا، بالدليل منظوراً إليه في علاقته مع ذاته، والدليل في ذاته مجرد كيفية (93). إلا أن الكيفية يمكن أن تعتبر مجدداً بصفته أولى : أي كيفية بدون وجود؛ وبصفته ثانية : أي كيفية موجودة؛ وبصفته ثالثة : أي قانوناً (94).

وتناسب هذه الأنماط الثلاثة للممثل ثلاثة أنواع ناقلة للدليل، ويمكن العثور عليها وفق العلاقة التي تنسجها الممثلات Les representamen مع مقولات الأولية والثانوية والثالثية (95) : □ الممثل في علاقته مع الممثل (م.م) وهو عبارة عن دليل — كيفية qualisigne أي كيفية بوصفها تشكل دليلاً. ولا يمكن لهذه الكيفية، في الواقع، أن تشتغل بوصفها دليلاً قبل أن تتجسد، إلا أن هذا التجسيد لا علاقة له بطابعها الدليلي (96). إنه دليل متجسد في كيفية (97). والدليل باعتباره كيفية هو التعبير الخالص عن الأولية (98). إن الدليل — الكيفية ليس دليلاً عماداً إلا بكيفيته وحدها وبمعزل عن كل علاقة فضائية أو زمانية مع موضوعه. ويمكن أن تمثل للدليل — الكيفية بما يلي : لون العينة؛ إذا كنت أعلم السباحة لشخص ما، فإن حركات ذراعي وجسمي كيفية يمكن تأويلها في ذاتها كدليل — عماد Signe-fondement لحركات المتعلم المتأثرة كيفية؛ المحاكاة؛ الميم؛ الانعكاس. والدلائل — الكيفيات هي مصدر الاستعارة والتماثل والمثابة (99).

Carontini P. 9 (90)

Deledalle. théorie P. 70 (91)

(92) نفسه. نفس الصفحة

Ecrits sur le signe P. 138 (93)

Deledalle. commentaire P. 230 (94)

Deledalle. théorie P. 70 (95)

Ecrits sur le signe P. 138 et Deledalle. théorie P. 72 (96)

Deledalle. commentaire P. 230 (97)

Deledalle. théorie P. 72 (98)

Savan. La sémiotique de Charles S. Peirce in langages N°58 P. 14 (99)

□ الممثل في علاقته مع الموضوع (م.و) وهو دليل مفرد Sinsigne. إنه الممثل باعتباره ثانياً أو موضوعاً، وهو شيء أو حدث موجود واقعي مُشكَّلٌ للدليل (100) إنه موضوع أو حدث فردي (101). ولا يمكنه أن يكون دليلاً إلا بكيفياته بحيث ينطوي على الدليل — الكيفية أو عدة دلالات — كفيات، إلا أن هذه الدلالات الكيفيات لا تشكل دليلاً إلا حينما تتجسد في الواقع (102). وعليه، فالدليل — المفرد لا يمكنه أن يوجد إلا بكيفياته (103). ويمكن أن تمثل للدليل المفرد بالنصب التذكاري والصورة الشمسية وعَرَضَ مرض معين (104). إن طلاقة المسدس الفجائية التي تؤذن بانطلاق سباق عبارة عن دليل مفرد، والكلمات التي نستعملها في الاحتفالات الطقوسية دلالات مفردة، وسلطة الكلمات المستعملة في الزواج أو حينما نقسم أمام محكمة أو حينما ينطق قاض بالحكم... كل ذلك يرتبط بالسياق وبوضع الشخص الذي يتلفظ بهذه الكلمات، ويرتبط أحياناً بالتنغم الذي يؤديه. هذه الدلالات الطقوسية والانجازية performatifs ليست، في الجوهر، سوى دلالات مفردة (105).

□ الممثل في علاقته مع المؤول (م.أ)، وهو عبارة عن دليل — قانون légisigne. إنه الممثل بصفته ثالثاً أو مؤولاً. وهو القانون الذي يشكل دليلاً. وهذا القانون من وضع الناس عادة. وعليه، فكل دليل تعاقدى هو بمثابة دليل — قانون. والدليل — القانون ليس موضوعاً مفرداً، وإنما هو نمط عام يجب أن يكون دالاً (106). إن كل أنساق الكتابة، كيفما كانت، مادامت تخضع لقواعد تكوين واستعمال، هي دلالات — قوانين. وحينما نقول عن صفحة كتاب ما إنها تحتوي على 250 كلمة، تكون «le» عشرين منها، فإن «الكلمة» دليل مفرد. أما باعتبار الطريقة التي نستعمل بها، في أغلب الأحيان، لفظة «كلمة»، فإننا حينما نقول إن «le» «كلمة» و «un» «كلمة» أخرى، فإن «الكلمة» دليل — قانون. إلا أننا لا نكتب الدلالات — القوانين أو نقرأها أو ننطق بها أو نسمعها، بل نكتب نُسخَها répliques ونقرأها ونسمعها وننطق بها (107). إن كلمة «دليل — قانون» المطبوعة على هذه الصفحة وفي السطر الذي قرأها فيه القارئ في الكتاب الموجود بين يديه هي بمثابة نسخة مفردة وحيدة للكلمة «دليل — قانون» المستعملة كممثل ثالث. ولأن الكلمة «دليل — قانون» المكتوبة هنا نسخة مفردة ووحيدة، فإنها دليل مفرد. وبما أننا رأينا أن الدليل المفرد هو أيضاً، تحقيق

Deledalle. théorie.... P. 72 Ecrits sur le signe P. 139 (100)

Deledalle. théorie.... P. 72 (101)

Ecrits.... P. 139 (102)

Deledalle. commentaire... P. 230 (103)

Deledalle. théorie.... P. 72 (104)

Savan. op. cit P. 14 — 15 (105)

Deledalle. théorie.... P. 72 Ecrits... P. 139 (106)

Deledalle. théorie... P. 72 — 73 (107)

لدليل — كيفية، فإن كل دليل مفرد ليس نسخة (108). إن اللغات والإشارات والبنىات الثقافية والاجتماعية لمجتمع معين هي دلالات — قوانين، وكل مثال هو دليل لأن الأمر يتعلق بعينة ما، ونسخة لقاعدة (109).

وبعد تفصيل القول حول هذه الدلالات، لا بد من التنبيه على أنه من الخطأ الاعتقاد بأن الدلالات — الكيفيات والدلالات المفردة والدلالات — القوانين عبارة عن ثلاث وحدات متميزة. فالأمر يتعلق بوظائف ثلاث متميزة تتخذ عدة مظاهر يمكن لأي شيء، بفضلها، أن يصبح عماد دليل. إذ يمكن لنفس الشيء الواحد أن يكون، في الآن ذاته، دليلاً — كيفية من زاوية نظر معينة، ودليلاً مفرداً من زاوية نظر أخرى، ودليلاً — قانوناً من زاوية نظر ثالثة. (110).

2 — البعد الثاني وهو بعد الموضوع. ويخص الأمر علاقة الدليل مع موضوعه. إنه البعض الوجودي أو العملي (111). ويتكون هذا البعد من ثلاث أنماط هي أنماط الموضوع. وتعني هذه الأنماط الثلاثة نوعية العلاقة التي ينسجها الدليل مع موضوعه الموجود في علاقة مع الممثل بوصفه أولاً، وفي علاقته مع الموضوع بوصفه ثانياً، وفي علاقته مع المؤول باعتباره ثالثاً (112). والدليل هنا عبارة عن موجود (113) :

□ الموضوع في علاقته مع الممثل (و — م) ويتعلق الأمر بالأيقونة icône. والأيقونة دليل له الخاصية التي تجعل منه ذا دلالة ولو كان موضوعه غير موجود. إنها الدليل الذي يفتقد، على الفور، الخاصية التي تجعل منه دليلاً إذا ما ألغى موضوعه، إلا أنه لا يفتقد هذه الخاصية لو لم يكن هناك مؤول (114). إن الأيقونة صورة تستنسخ نموذجاً. وهكذا، فإن الكيفية أو الفرد الموجود أو القانون يمكن اعتبارها أيقونات لأشياء معينة مادامت تتشابه مع هذه الأشياء وما دامت تُستعمل دلالات لهذه الأشياء (115). والدلالات — الكيفيات، مثل الاحساس الناتج عن إنجاز قطعة موسيقية، والدلالات المفردة... أيقونات، إلا أن الأيقونة ليست دليلاً — كيفية أو دليلاً مفرداً، فالأيقونة تحيل على موضوع ما، والدليل — الكيفية والدليل المفرد يحيلان على نفسيهما، والأيقونة صورة موضوع ما، والدليل — الكيفية والدليل المفرد كياناً مكونة للصورة، باعتبارها كفيات بالنسبة للدليل الكيفية، وباعتبارها مجسدة في صورة بالنسبة

(108) نفسه. ص 73

Savan. op.cit. P. 15 (109)

(110) نفسه. ص 15

Ecrits.. P. 140, théorie... P. 70 (111)

Deledalle. théorie... P. 73 (112)

Ecrits... P.140 (113)

(114) نفسه. نفس الصفحة، وانظر أيضاً P. 73 Deledalle. théorie

Deledalle. théorie.... P. 74 (115)

للدليل المفرد. إلا أنه يمكن لمثل أيقونة أن يكون دليلا — كيفية أو دليلا مفردا أو دليلا — قانونا (116).

وتتفرع الأيقونة الى الصور images أي الأيقونات التي هي جزء لا يتجزأ من الكيفيات البسيطة، وتتفرع الى الرسوم diagrammes أي الأيقونات التي تمثل العلاقات، خاصة العلاقات الثنائية أو العلاقات المعتبرة ثنائية، وتتفرع الى استعارات أي الأيقونات التي تمثل الخاصية التمثيلية لمثل ما في تمثيله لتواز في شيء ما آخر (117).

ويمكن أن نمثل للأيقونة بعينة القماش التي يُرَبِّي إياها الخياط...

□ الموضوع في علاقته مع الموضوع (و — و) ويتعلق الأمر بالأمانة indice. والامارة دليل يحيل على الموضوع الذي يعينه، لأنه في الحقيقة، متأثر من قبل هذا الموضوع (118). وتنسج الامارة علاقة مباشرة وفاعلة مع الموضوع، وترتبط بموضوعها بواسطة المجاورة. فهي، إذن، التعبير التام عن الثانوية. وهي دليل مفرد وحيد يحيل على موضوع مفرد وحيد ذي كيفية. ولذلك، لا يمكنها أن تكون دليلا — كيفية. ومثال الامارة: الدخان إذ هو أمانة للنار. ولا بد من القول هنا بأن الأمر يخص هذا الدخان الذي أراه يصعد والذي يدفعني الى التنبيه عليه لكي يقدم رجال المطافئ لاطفاء النار (موضوع الامارة) التي لم أرها ولا أشك في وجودها لأن الدخان والنار مرتبطان عضويا. ومثل الأمانة دليل مفرد أو دليل — كيفية. وهذا أمر واضح بالنسبة للدليل المفرد، فالعرض في علاقته مع ذاته دليل مفرد، وفي علاقته مع الموضوع (مرض معين) أمانة. ويمكن للضمير pronom الذي هو بمثابة دليل — قانون أن يكون أمانة (119).

□ الموضوع في علاقته مع المؤول (و — أ)، ويتعلق الأمر بالرمز symbole. والرمز دليل يحيل على الموضوع الذي يعينه بفضل وجود قانون يحدد تأويل الرمز بالاحالة على هذا الموضوع (120). وهو ثالث وعام. فالرمز، إذن، دليل — قانون، وهو يعمل، بهذه الصفة، بواسطة نسخة ما. إن كل كلمة وكل دليل تعاقدي عبارة عن رمز.

والرمز ليس عاما فحسب باعتباره دليلا، إنه يحيل على موضوع عام ذي وجود في الحالات الخاصة التي يحددها والتي هي الحالات الموجودة لما يعينه الدليل. وعليه، فالأمانة يمكنها أن تكون عنصرا مكونا للرمز. فحينما نشير للطفل بالاصبع الى كرة في السماء قائلين: «إن هناك كرة»، فإن القضية (= الجملة) رمز والذراع المنتصب نحو السماء جزء لا يتجزأ

(116) نفسه. نفس الصفحة

(117) نفسه. ص 149

(118) Ecris... P. 140

(119) Deledalle. théorie... P. 75

(120) Ecris... P. 141

من الرمز، لأنه بدون الذراع المنتصب يتعذر على الرمز إمدادنا بأي إخبار. لكن إذا ما سأل الطفل: «ما معنى الكرة؟» وإذا أجبتنا «إنها شيء شبيه بفقاعة كبرى من الصابون»، فإننا نجعل من الصورة، أي الاستعارة — والاستعارة أيقونة —، عنصرا مكونا للرمز (121). إن الرمز ليس شيئا مفردا أي ليس دليلا مفردا لأن الدلائل الذهنية ذات طبيعة مختلطة. ومثل الرمز، دائما، عبارة عن دليل — قانون، إلا أنه لا يمكنه أن يشتغل إلا إذا ما تجسد في نسخة. والنسخة دليل مفرد في الثلاثية الأولى وأمانة في الثلاثية الثانية (122).

3 — البعد الثالث وهو بعد المؤول. ويتعلق الأمر بعلاقة الدليل مع المؤول. إنه البعد المنطقي أو التداولي (123). ويتكون هذا البعد من مؤول أول ومؤول ثان ومؤول ثالث بالنظر الى نوعية العلاقة التي ينسجها الدليل مع مؤوله. والدليل هنا عبارة عن قانون عام ويعبر عن عموميته تلك بواسطة الأنماط الثلاثة التالية:

□ المؤول في علاقته مع الممثل (أ — م): ويتعلق الأمر بالخبر rhème. والخبر هو دليل يشكل، بالنسبة الى مؤوله، دليل إمكان كيفية أي أنه مُدْرَك باعتباره يمثل هذا النوع أو ذاك من الموضوع الممكن. ويمكن للخبر أن يمدنا بإخبار، إلا أنه لا يؤول باعتباره شيئا يمدنا بإخبار معين. إنه دليل مُدْرَك بوصفه يمثل موضوعه في خاصياته لاغير (124).

ويعوّض الخبر الحدّ terme في المنطق الكلاسيكي. والحد اسم صنف أو اسم عَلَم لاغير (125)، وهو عبارة عن تابع قضوي fonction propositionnelle (126). وما يتبقى من قضية ما بعدما نحذف الموضوع هو حد (= خبر) يسمّى مَحْمُولَه prédicat (127). فالحمول خبر بالضرورة (128).

إن الخبر دليل بسيط أو معوّض (129)، وهو ليس لاصادقا ولا كاذبا تقريبا مثل الكلمات منظورا إليها مفردة (130) ولا يدعى الخبر تأثره بالموجود الواقعي أو القانون الواقعي (131).

(121) Deledalle. théorie... P. 76

(122) نفسه. ص 76 — 77

(123) نفسه. ص 70 و Ecris... ص 141

(124) Ecris... P. 141

(125) نفسه. ص 32

(126) Deledalle. théorie... P. 78

(127) Ecris... P. 143

(128) نفسه. ص 176

(129) نفسه. ص 166

(130) نفسه. ص 33

(131) نفسه. ص 142

إن المؤول الخيري دليل يسمح بفهم دلالة ممثل معين وذلك باستدعائنا لوسائله الخاصة لاغير. فحينما أريد أن أفهم شخصا ما تدل عليه كلمة شجرة في الفرنسية — وألجأ لهذه الغاية الى رسم للشجرة — فإن دلالة كلمة شجرة تُفهم من قبل ذلك الذي لم يكن يعرفها، وذلك فقط بفضل العلاقة بين تعاقب الأصوات الذي يكون المؤول شجرة ومجموع المعارف الذي يثيره فيه رسم الشجرة. إن الخبر يحدد، إذن، بفضل بنيته القائمة في الأولية، ميكانيزم المؤول فقط على أساس الأيقونية iconicité والمشابهة similitude والمجاورة بين المؤول والموضوع (132).

وإذا أردنا أن نمثل للخبر، سننطلق من اعتبار ما يلي :

كل إنسان فإن
سقراط إنسان
إذن سقراط فإن

وهكذا، فـ «فإن» في الجملة الأولى و«إنسان» في الجملة الثانية خبران rhèmes. — المؤول في علاقته مع الموضوع (أ — و) ويتعلق الأمر بالمقول dicent أو الدليل — المقول dicisigne. وهو دليل يشكل، بالنسبة الى مؤوله، دليل وجود واقعي (133). وهو يناسب على وجه التدقيق القضية الاسنادية proposition attributive. وهودليل يمدنا بإخبار يتصل بموضوع الدليل. ويشتمل، بالضرورة، على خبر، باعتباره جزءاً لا يتجزأ منه، لكي يصف كونه يشير إلى شيء ما، إلا أنه ليس سوى نحو خاص من الخبر، ورغم أنه جوهري بالنسبة الى الدليل المقول، فهو لا يشكله أبداً (134).

إن الدليل المقول دليل مدرك باعتباره يمثل موضوعه في علاقته مع الوجود الواقعي (135). إنه قضية proposition أو شبه قضية quasi-proposition (136). والقضية ليست في حاجة إلى أن تثبت أون يحكم عليها، بل يمكن أن يُتأمل فيها باعتبارها دليلاً قابلاً لأن يُثبت أو أن يُنقَى. ويحافظ هذا الدليل نفسه على دلالاته التامة سواء أثبت، واقعياً، أم لم يثبت. وإذن، فإن خاصيته تكمن في نمط دلالاته، ويعني ذلك أن خصوصيته تكمن في علاقته مع مؤوله. وتنبئ القضية بأنها تتأثر، واقعياً، بالموجود الواقعي أو القانون الواقعي اللذين تحيلان عليهما. (137). إن القضية دليل — مقول، والدليل المقول رمز (138).

والدليل المقول دليل مزدوج إخباري (139) والنوع الدليلي الذي يُبلغ إخباراً (140). إن معرفة إذا ما كان دليل معين دليلاً مقولاً أم غير ذلك تكمن في كون الدليل المقول إما أن يكون صادقاً أو كاذباً، إلا أنه لا يمدنا بسبب صدقه أو كذبه. ويبين هذا أن الدليل المقول ينبغي أن يحيل، بوضوح، على شيء معين له وجود واقعي بغض النظر عن تمثيله بوصفه تمثيلاً. وعلاوة على ذلك، لا ينبغي لهذه الاحالة أو العلاقة أن تبدو باعتبارها إحالة (أو علاقة) عقلية، وإنما ينبغي أن تبدو بوصفها ثانوية عمياء (141).

إن الدليل المقول ليس تقريراً assertion ولكنه دليل قادر على أنه يقرر être asserté. إلا أن التقرير دليل (142). وهو، في نفس الآن، جزء من موضوع الدليل المقول وجزء من مؤوله، فهو مركب من جزئين، وعليه أن يبين أن هناك ارتباطاً بين جزئيه (143)، وجزءاه هما الموضوع والمحمول (144).

ويرى Carontini كارانتيني أن ما يجب تسجيله بخصوص هذا النمط الثاني من المؤول، أن ميكانيزمه، على عكس ميكانيزم النمط الأول من المؤول، يحتاج دائماً إلى أن يضع الممثل الذي هو مؤوله، في إطار مقام ملموس يستلزم، على الأقل، علاقة بين هذين الطرفين. ويمكننا أن نفهم بشكل أفضل هذا النمط من المؤول حينما نوازي بينه وبين المحور المركزي في إطار السيميوطيقا السوسيرية. وبالفعل، فإن الدليل المقول يؤول ممثلاً ما حينما نضعه في سلسلة من الدلائل المتجاورة في الواقع، وهو يكتسب دلالاته داخلها في تعارض مع المشابهة. إنه يمكننا أن نفهم شخصاً دلالة كلمة «شجرة» الفرنسية حينما نشير له الى مقام ملموس تجسد فيه شجرة واقعية، مثلاً شجرة التفاح هذه الموجودة في هذه الحديقة. إن الأهم، هنا، هو مفهوم السياق، ولا يهم إذا ما كان هذا السياق سياقاً وجودياً وواقعياً أو أن الأمر يتعلق بسياق تذكري أو سياق لساني خالص (145).

وهكذا، فإن (1) و(2) و(3) بمعزل عن بعضها البعض عبارة عن قضايا :

- (1) كل إنسان فإن
- (2) سقراط إنسان
- (3) إذن سقراط فإن. (146).

(139) نفسه ص 166

(140) نفسه ص 167

(141) نفسه ص 142 و 167

(142) نفسه ص 33

(143) نفسه ص 168 — 169

(144) نفسه ص 170

(145) Carontini. l'action du signe P. 48 — 49

(146) Deledalle. théorie... P. 134

Carontini, l'action du signe P. 48 (132)

Ecrits... P. 141 (133)

(134) نفسه. نفس الصفحة و P. 78 Deledalle, théorie...

Ecrits... P. 141 (135)

(136) نفسه. نفس الصفحة.

(137) نفسه ص 142

(138) نفسه ص 177

ويمكن أن تمثل هذه الأبعاد بتفريعاتها كما يلي :

	م 1	و 2	أ 3
م ₁	دليل — كيفية	أيقونة	خبر
و ₂	دليل مفرد	أمانة	دليل مقول
أ ₃	دليل قانون	رمز	حجة

يشير هذا الرسم الى تقسيمات فرعية. ولا يمكن لأي تقسيم فرعي أن يشكل، في ذاته، دليلاً، لأن الدليل ثلاثي. بل إن هذه التقسيمات الفرعية هي مكونات منطقية للدليل. ونظراً لأن كل دليل يتم تعريفه من قبل علاقته الثلاثية على المستويات الثلاثة للدليل، فإن عدد أصناف الدلائل يصل الى 37 صنفاً من الدلائل.

وبالنظر الى مبدأ هرمية المقولات في تطبيقها على الدلائل، فإن هناك عشرة أصناف مقبولة وصالحة. فلو قرأنا هذه اللوحة عمودياً، فإنه، من الواضح، حسب دولودال، ألا وجود إلا لصنف واحد من الدلائل التي يكون الممثل فيها هو الأول (1.1، 1.2، 1.3) (154).

	أول	ثان	ثالث
م	1.1	2.1	3.1
و	1.2	2.2	3.2
أ	1.3	2.3	3.3

الثلاثيات الثلاثة للدليل (155).

(154) نفسه ص 80

(155) نفسه ص 79

— المؤول في علاقته مع المؤول (أ — أ) ويتعلق الأمر بالحجة Argument. وهو دليل يشكل، بالنسبة الى مؤوله، دليل قانون (147). ولو لم يكن للاستدلال raisonnement بعد نفسي لسماه بورس به. إن الحجة وسيلة للتعريف بشيء ما. إنه دليل مُدرك باعتباره يمثل موضوعه في خاصيته بوصفه دليلاً (148). والعلاقة الحجية علاقة عقلية، وإذن، فهي إما صادقة وإما كاذبة إلا أنها تترك المجال لفحص أسباب صدقها أو كذبها (149). إن الحجة تمثل، بشكل مميز، مؤولها أي استنتاجها (150).

إن بورس يطابق المؤول الحجة مع «الحكم» jugement في المنطق الكلاسيكي. وهذا الشكل الثالث من المؤول ينتج ميكانيكياً دلالة يفترض الوضع القبلي لمجموعة من القواعد المحددة بشكل أفضل. وإذا أحلنا، مرة ثانية، على سوسير، فإن الأمر يتعلق بما سُمّاه بالترابطات أو الاستبدالات (151).

إن الحجة تسمح، إذن، بفهم دلالة ممثل حينما نضعه في إطار العلاقات التي ينسجها مع الدلائل الأخرى داخل سنن أو على وجه الدقة، داخل النموذج paradigme الذي ينتمي إليه. وإذا عدنا مرة أخرى الى المثال الذي سبق ذكره، فإنه يمكننا أن نفهم المخاطب دلالة كلمة «شجرة» بذكر الكلمة المعروفة لديه والمتنسبة الى نفس الحقل الدلالي الذي ينتسب اليه الدليل اللساني «شجرة» (152).

وهكذا، فإن (1) و (2) و (3) تعتبر في مجموعها حجة :

(1) كل إنسان فاني

(2) سقراط إنسان

(3) إذن سقراط فاني (153).

Ecrits.... P. 141 (147)

Deledalle. théorie... P. 79 و 142 (148) نفسه ص

Eluerd. la pragmatique linguistique P. 59 (149)

(150) نفسه. نفس الصفحة

Carontini. l'action du signe P. 49 (151)

(152) نفسه. نفس الصفحة

Deledalle. théorie... P. 134 (153)

	أول
م	1
و	
أ	

صنف الأولية (156)

أما إذا كان الممثل هو الثاني، فإن موضوعه يمكن أن يكون أولاً أو ثانياً. وإذا كان أولاً، فإن المؤول يحدد صنف الدلائل التالي : (1.3، 1.2، 2.1)، وإذا كان ثانياً، فإن المؤول يحدد صنفين من الدلائل : (1.3، 2.2، 2.1) و (2.3، 2.2، 2.1). أي أن هناك ثلاثة أصناف من الدلائل يكون الممثل فيها هو الثاني (157).

	أول	ثان
م		2 3 4
و		
أ		

الأصناف الثلاثة للثانوية (158)

أما إذا كان الممثل هو الثالث، فإن موضوعه يمكن أن يكون أولاً أو ثانياً أو ثالثاً، ويمكن لمؤوله أن يكون كذلك أولاً أو ثانياً أو ثالثاً، الشيء الذي يوفر لنا ستة أصناف من الدلائل يكون الممثل فيها هو الثالث : صنفاً يكون موضوعه هو الأول (1.3، 1.2، 3.1). وصنفين موضوعهما هو الثاني (1.3، 2.2، 3.1) و (2.3، 2.2، 3.1) وثلاثة أصناف موضوعها هو الثالث (1.3، 3.2، 3.1) و (2.3، 3.2، 3.1) و (3.3، 3.2، 3.1). أي ستة أصناف يكون الممثل فيها هو الثالث (159).

	أول	ثان	ثالث
م			5 6 7 8 9 10
و			
أ			

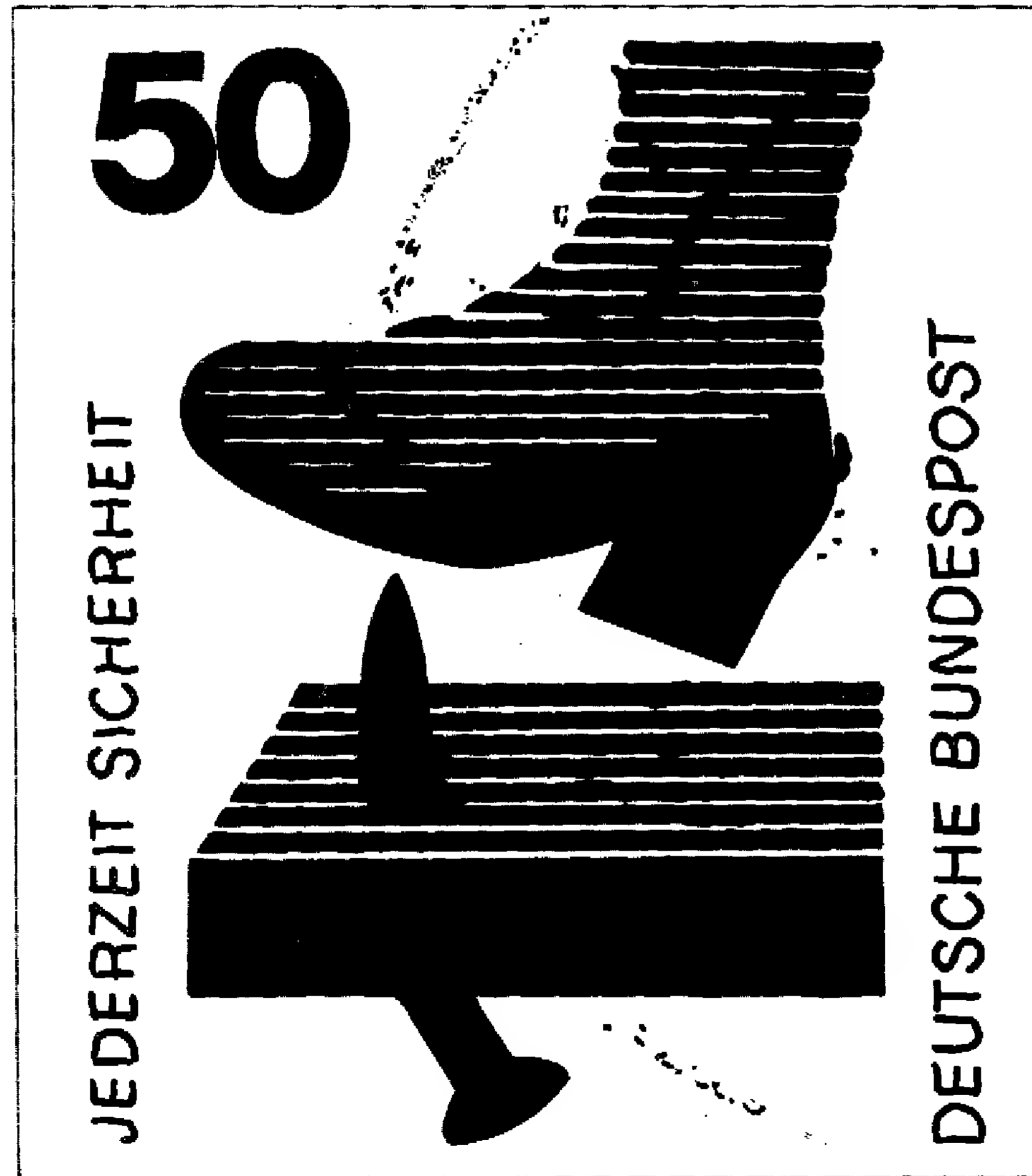
الأصناف الستة للثالثية (160)

- وإذن، فأصناف الدلائل لا تتجاوز العشرة : وهي :
- 1 — الدلائل — الكيفيات (الأيقونية الخيرية) : الاحساس ب «الأحمر»
 - 2 — الدلائل المفردة الأيقونية (الخيرية) : رسم معطى في كتاب الهندسة
 - 3 — الدلائل المفردة الأمارية الخيرية : صراخ عفوي.
 - 4 — الدلائل المفردة (الأمارية) المقولية : فرقارة girouette
 - 5 — الدلائل — القوانين الأيقونية (الخيرية) : رسم بغض النظر عن تجسيده على سبورة سوداء أو في كتاب.
 - 6 — الدلائل — القوانين الأمارية الخيرية : ضمير.
 - 7 — الدلائل — القوانين الأمارية المقولية : صراخ في الشارع.

ومؤوله. وبعبارة أخرى، فإن الدليل المفرد والأيقونة والرمز والمقول... ليست دلائل، وإنما هي مكونات منطقية للدليل (165). فهذه التركيبات، إذن، ليست ثلاثية فحسب وإنما هي منطقية. وهذا يعني أن هذه التركيبات تأخذ بعين الاعتبار الهرمية الموجودة بين الأصناف الفرعية: فالثلاثية تفترض الثانوية، والثانوية تفترض الأولية. ولهذا السبب ليست هناك سوى عشرة أصناف من الدلائل (166). ويتحكم نفس المنطق في الأقواس التي تلحق بالتسميات. وبالفعل فإن الدليل — الكيفية لا يمكنه أن يكون غير أيقونة وخبر، وأن كل الرموز هي دلائل — قوانين.. الخ (167).

ولكي يعطي دولودال فكرة واضحة عن هذه الأصناف وتأليفاتها، يقوم بتحليل طابع

بريدي :



Eluerd. la pragmatique linguistique P. 54 et 58 (165)

(166) نفسه. ص 58

(167) نفسه. ص 58

8 — الرموز الخبرية، أو بالتدقيق، (الدلائل — القوانين) الرمزية الخبرية : اسم جنس.

9 — الرموز المقولية، أو بالتدقيق (الدلائل — القوانين) الرمزية المقولية : قضية معينة.

10 — الحجج، أو بالتدقيق، (الدلائل — القوانين) الرمزية الحجية : استدلال قياسي (161).

إن هذه الأصناف العشرة، مثلها مثل ثلاثيات الدليل الثلاثة، هي حصيلة تحليل منطقي وليست حصيلة ملاحظة للأوضاع (162). فالدليل عبارة عن ثلاثية، وهو سيورة من العلاقات العمودية بين ممثل (م) وموضوع (و) ومؤول (أ). غير أنه من الضروري، بهدف تخصيصه في فردانيته، تثليثه أي تناول كل لحظة من لحظات الممثل والموضوع والمؤول كثلاثيات (يُمَثَّل لها أفقياً)، ومن شأن ذلك أن يمكننا من تحديد المقولة الظاهرية التي تعود إليها كل لحظة معطاة للدليل (163) :

	1	2	3
م	م 1	م 2	م 3
و	و 1	و 2	و 3
أ	أ 1	أ 2	أ 3

(164)

وإن في الاقرار بهذا الأمر إشارة إلى أنه لا ينبغي الخلط بين صنف فرعي للدليل وبين الدليل التام. إذ لا وجود للدليل إلا إذا ما وجدنا الأبعاد الثلاثة للثلاثية. وتقوم قائمة الأصناف العشرة على تركيبات ثلاثية لأن هذه القائمة تمدنا، في كل لحظة، بدليل تام بمثله وموضوعه

Ecrits P: 179—183 et Deledalle. commentaire P.240 — 241 (161)

Deledalle. commentaire P. 241 (162)

Bruzy et autres op. cit P. 34 (163)

(164) نفسه ص 34

يُميز دولودال، بادئ ذي بدء، الصورة المجردة عن عناصر الرسم الأخرى : النص والأرقام والميَّسم البريدي *la marque postale* وأسنان الطابع *la dentelure du timbre*. إن الصورة، بهذه الصفة وباعتبارها ممثلاً، دليل مفرد. وبالفعل، فهي ليست دليلاً — قانوناً لأنها ليست جزءاً لا يتجزأ من سنن. ونظراً لأن الدلائل — الكيفيات، رغم كونها واقعية، لا يمكنها أن توجد إلا متحققة في موضوع، فإن الصورة الممثل لها دليل مفرد يجسد لقاء دلائل — كيفيات. وبالنظر إلى الموضوع الذي يمثله الممثل، فإن الصورة أيقونية إذ تحيل على موضوعات قابلة لأن يُعرَّف عليها ويمثلها كل عنصر من عناصر الصورة : فردة حذاء ومسمار معوّج منغرس في قطعة من الخشب. وعليه، فإن الصورة، بالنظر إلى موضوعها، أيقونية، إلا أن هذه الصورة، معزولة عن سياقها، ليست قابلة للتأويل إلا على المستوى الأول للمؤول : فهي خبيّة. وهي لا تقول أكثر مما تسمح لها بقوله طبيعتها الخبيّة : القدم اليسرى لامرأة تتعل كعباً موضوعاً على مسمار معوج منتزع نصفه من قطعة الخشب. إن هذه الصورة تنتمي، إذن، إلى الصنف الثاني من الدلائل : إنها دليل مفرد أيقوني خبي.

أما إذا وضعناها في سياقها المادي، فإن الصورة تبدو بوصفها صُورة *vignette* طابع بريدي ذي أمارات متقاربة : أسنان، ميَّسم خاتم مؤرخ. فالطابع البريدي من ألمانيا الفيدرالية وهو طابع بريدي منتزع من رسالة وضعت في صندوق للبريد بهامبورغ في 26 يونيو زوالاً. وقد وضعها مُرسِل يمكن للقارئ الذي يعرف المرسل إليه أن يسميه. وعلى هذا المستوى من التأويل، فالصورة ليست مجرد دليل مفرد أيقوني خبي. فنحن نعرف أن الأمر يتعلق بصورة بريدية *vignette postale*. والصورة، في هذه الحالة، دليل مفرد أماري مقولي.

وإذا ما وضعنا الصورة في سياقها التأويلي أو الدلالي الذي توفره لنا الخرافة *Jederzeit* *sicherheit* والتي قد نؤولها بوصفها دعوة إلى الحذر. فإن الصورة تصوير، في هذه الحالة، الصورة دليلاً — قانوناً رمزياً حجباً. إنها دليل — قانون لأن الطابع البريدي جزء لا يتجزأ من سلسلة الطوابع البريدية التي صدرت في إطار حملة الوقاية من الحوادث : إنه جزء لا يتجزأ من نسق وعنصر من سنن. وبذلك فالصورة دليل — قانون رمزي.

ولذا، فالأمر لا يتعلق بقدم امرأة توشك أن تطأ مسماراً معيناً، وإنما يتعلق الأمر بالخطر الناجم عن قطع الخشب المستعملة والمرمية في الشارع دون أن نزيل منها المسامير. إن الأيقونة تصبح رمزا، وتصير الصورة دليلاً — قانوناً رمزياً حجباً. فالصورة لا تقول بإزالة قطع الخشب المستعملة المرمية في الشارع، وإنما تقدم الحجة على ذلك، فهي حجة : إذا تركتم قطع الخشب القديمة مرمية في الشارع — تلك القطع التي لم تزيلوا منها المسامير التي من الممكن أن تكون قد دُقت فيها — فإنكم قد تَسبّبون في جرح شخص ما. إنها الحجة المنطقية بامتياز : أي الاستلزام.

إن الخلاصة التي على المشتغلين في الأوراش أو أولئك الذين يزودون الزبناء بِمُؤن في صناديق من الأخشاب — الوقوف عندها هي أنه يجب ألا تترك قطع الخشب في الشارع وخاصة إذا كانت فيها مسامير. ثم هناك خلاصة أعم يمكن الوقوف عندها وهي أنه يجب الانتباه إلى المواضع التي نضع عليها أقدامنا خاصة حينما نمر بالقرب من ورش أو أي مكان توضع فيه الأدوات الثقيلة. (168).

الفصل الرابع

الاتجاهات السيميوطيقية

1. تصور سوسير للسيمولوجيا

لأن سوسير لم يتناول السيميولوجيا إلا عرضاً في فترة لم يشق فيها البحث اللساني طريقه بعد وبالتالي لم يكن بوسع هذا العلم الجديد — السيميولوجيا — أن يتبلور بعد كمجال معرفي مخصوص، فقد اقتصر على تقديم تصور عام لاغير، تصور عام لهذا العلم ولموضوعه ولنهجه.

إن السيميولوجيا تنطلق في تصور سوسير من «نظام جديد للوقائع»⁽¹⁾ ذلك أن اللسان نسق دلائل معبرة عن أفكار، ومن ثمة فهو شبيه بالكتابة وبأبجدية الصم — البكم، والطقوس الرمزية وأشكال آداب السلوك والعلامات البحرية... الخ...⁽²⁾. هذه الوقائع، إذن، يمكنها أن تُنظَّم بشكل جديد تحت خانة واحدة مادامت عبارة عن وقائع دالة. ولأنها كذلك فهي، إذن، أنساق دلائل أي أنساق مُكوَّنة من مركبات دوال ومدلولات، هذه المركبات التي عليها أن تؤدي وظيفة التعبير عن أفكار متميزة، أي وظيفة رمزية داخل المجتمعات المختلفة. وما دامت هذه الوقائع المختلفة أي هذه الأنساق المتنوعة تؤدي نفس الوظيفة، فإنه من الممكن تصور علم عام من شأنه أن يدرس كل الدلائل المختلفة. يقول سوسير: «يمكننا، إذن، أن نتصور علماً يدرس حياة الدلائل داخل الحياة الاجتماعية؛ علماً سيكون فرعاً من علم النفس الاجتماعي، وبالتالي فرعاً من علم النفس العام؛ ونطلق على هذا العلم السيميولوجيا (من «Sémeion» أي دليل). وسيكون على هذا العلم أن يعرفنا على وظيفة هذه الدلائل وعلى القوانين التي تتحكم فيها. ولأن هذا العلم لم يوجد بعد، فلا يمكن التكهن بمستقبله؛ إلا أن له الحق في الوجود، وموقعه محدد سلفاً»⁽³⁾.

* (1) Cours de linguistique générale P. 33

(2) نفسه. نفس الصفحة

(3) نفسه. نفس الصفحة

إن هذه الوقائع — الدلائل وغيرها قد سَنَتها المؤسسات المجتمعية لتأدية مقاصد داخل المجتمعات المعنية ولتقوم بوظيفة الترميز وضبطها في هذه المجتمعات. وهي لا تقوم بهذه الوظيفة الترميزية إلا وفق قواعد معينة مضبوطة. وإذن، فهي، تشكل فيما بينها مجالا معرفيا، ولذلك وجب تصور علم يقوم بدراساتها وكشف اليات اشتغالها. ويبدو أنه من المشروع تصور وجود مثل هذا العلم بالنظر الى هذا السبب، من جهة، وبالنظر من جهة ثانية، إلى أن مشروعية مثل هذا التصور تستند الى موقعه ضمن العلوم وخاصة علم النفس العام ذلك أن هذه الوقائع — الدلائل ذات طبيعة اجتماعية ونفسية كما أوضح ذلك سوسير في حديثه عن مفهوم الدليل.

وبما أن هذه الوقائع تشتمل داخلها على عدة أصناف من الدلائل، فإن الدلائل اللسانية ليست سوى صنف خاص من مجموع هذه الوقائع. ولذلك اعتبر سوسير أن «اللسانيات ليست سوى فرع من هذا العلم العام» (4). ويعني ذلك أننا أمام نوعين من الدلائل: دلائل لسانية و دلائل غير لسانية. والدلائل اللسانية تشكل فرعاً لاغير من عموم الدلائل. وبما أن السيميولوجيا ستعني بعموم الدلائل فهي علم عام. أما اللسانيات التي لا تُعنى إلا بالدلائل اللسانية فهي لا تعدو أن تكون علماً خاصاً بنوع محدد من الدلائل. وبذلك تكون اللسانيات علماً تابعا للسيميولوجيا، وتكون السيميولوجيا علماً شمولياً.

إلا أن افتراض وجود السيميولوجيا تواجهه عقبة معرفية تتجلى في كونها ليست بعد علماً مستقلاً وليست ذات موضوع خاص متميز. ذلك أن القضايا التي من المفترض أن تدرج في السيميولوجيا ما تزال موزعة على عدة علوم. ومن جهة ثانية، فإن السيميولوجيا تشتمل على ظواهر دالة مختلفة التكوين ومتفاوتة الوظيفة الرمزية والفعالية التعبيرية ومتعددة الأشكال.

ويعود هذا الغموض في وضع السيميولوجيا وفي طبيعة موضوعها، في رأي سوسير، الى افتقارنا لكل ما يمكنه أن يعرفنا بطبيعة المسألة السيميولوجية، أي اللسان، لأن طرح هذه المسألة طرحاً مقبولا يستوجب دراسة اللسان في ذاته (5). ويعني ذلك، في رأي سوسير، أن للسان أهمية كبرى في تصنيف الظواهر الدالة وكشف طبيعتها. وبما أن اللسان لم يدرس قبل سوسير في ذاته، فإنه لم يكن بمقدور السيميولوجيا أن تتشكل كعلم. أما وأنه قد وضعت، مع سوسير، أسس نظرية دراسة اللسان في ذاته، فإنه من المفروض الآن أن يوضع مثل هذا العلم العام. وبذلك يصح ربط تأخر ظهور السيميولوجيا بتأخر تشكل اللسانيات كعلم مستقل.

(4) نفسه. نفس الصفحة

(5) نفسه. ص 34

إن اللسان هو الذي مكنتنا من الوقوف على الخاصية الجوهرية للدليل والتي تتلخص في كونه ينفلت دائماً، وبدرجة ما، من الإرادة الفردية والإرادة الجماعية، ذلك أن الدليل يعتمد على عادة اجتماعية أو على تعاقد أو على قاعدة تثبتته وترسخه (6). إن هذه الخاصية التي تنكشف بوضوح في اللسان توجد في ظواهر دالة أخرى. واكتشاف هذه الخاصية في مثل هذه الظواهر ما كان ليتأتى لولا الانطلاق من اللسان والاستعانة به.

ونظراً لأن ذلك لم يتأت في السابق، بحكم إغفال دراسة اللسان في ذاته، فإنه لم يكن وارداً وضع السيميولوجيا كعلم. أما الآن، وبعد وقوفنا على الخصائص المشتركة بين الدلائل اللسانية والدلائل غير اللسانية — ولأن الدلائل غير اللسانية لا يمكنها أن تدرج ضمن موضوع اللسانيات — فإننا نجد أنفسنا في ميس الحاجة الى جمع تلك الوقائع الدالة والقيام بدراساتها وفق قوانين السيميولوجيا.

وإذا كانت مشروعية السيميولوجيا كعلم مستقل قد اتضحت معالمها الآن، فإنه ما يزال عليها أن تحل إشكالا كبيرا يتصل بتحديد موضوعها. إذ الدلائل السيميولوجية متفاوتة الاعتبارية بل إنها تنقسم الى دلائل اعتبارية ودلائل طبيعية مثل الحركات الميمية (7).

وإذا كان على السيميولوجيا أن تدرس هذين النوعين من الدلائل، فإن موضوعها الرئيسي، عند سوسير، لن يكون سوى «مجموع الأنساق القائمة على اعتبارية الدليل»، لأن «الدلائل التامة الاعتبارية تحقق نموذج الطريقة السيميولوجية أفضل من الدلائل الأخرى» وبذلك «يمكن لللسانيات أن تصبح المقاس العام لكل نشاط سيميولوجي رغم أن اللسان ليس سوى نسق خاص» (8).

إن للسيميولوجيا، إذن، موضوعين: أولهما رئيسي وينصب على دراسة الدلائل الاعتبارية، وثانيهما ثانوي وينكب على دراسة الدلائل الطبيعية. إلا أن هذا الشق الثاني غير محسوم بعد في وضعه المعرفي، ويبقى على السيميولوجيا مستقبلاً أن تحسم في مسألة اندراجه ضمن موضوعها أو عدم اندراجه.

ولأن الاعتبارية لم تعد مبدأ لسانياً فحسب وإنما صارت أيضاً مبدأ سيميولوجياً مُنظماً للأنساق السيميولوجية، فإن اللسان باعتباره النسق القائم على الاعتبارية في جوهره هو نموذج موضوع السيميولوجيا.

وبذلك صارت السيميولوجيا هي العلم الذي يقوم بدراسة الأنساق القائمة على اعتبارية الدليل.

(6) نفسه. ص 100 — 101

(7) نفسه ص 100 — 101 وص 110

(8) نفسه. نفس الصفحتين.

وعلاوة على ذلك، فإن السيميولوجيا، لكي تنهض كعلم مستقل ومحدد الموضوع، بات عليها أن تستنسخ التجربة اللسانية. ومن ثمة بات عليها أن تستعير من اللسانيات مبادئها ومفاهيمها. ويعني ذلك أن موضوع السيميولوجيا ينحصر في «اللسان» السيميولوجي باعتبار اللسان نظاماً من القواعد المختزنة والقوانين والأشكال النحوية المنطبعة في الذهن، أي باعتباره نسقاً تجريدياً مثالياً. وبذلك يكون موضوع السيميولوجيا هو الأنساق الدالة غير المنجزة باعتبار الانجاز (الكلام) السيميولوجي متفرداً وخاصاً ومتغيراً وخاضعاً لإرادة الفرد وذكائه. بينما تتوخى السيميولوجيا كل ماهو ثابت وعام وكلي ويعلو على إرادة الفرد والجماعة معاً، وما ذلك إلا لأن أي علم يهدف إلى تأليف عناصر موضوعه وانسجامها. يمثل هذه النظرة وما يترتب عنها صارت السيميولوجيا تابعة للسانيات بل وفرعاً منها. والمنهج الذي رصده سوسير، بخصوص التحليل اللساني، من المفروض، وفق هذا الطرح، أن ينسحب على الأنساق السيميولوجية مثل التزامنية (السانكرونية) والقيمة والتعارض والمحورين الترابطي والمركبي.

وعلى غرار انقسام اللسانيات إلى لسانيات اللسان ولسانيات الكلام وإلى لسانيات تزامنية (سانكرونية) ولسانيات دياكرونية، يبدو من هذا المنظور السابق أن السيميولوجيا يمكن أن تنقسم بدورها إلى سيميولوجيا اللسان وسيميولوجيا الكلام وإلى سيميولوجيا تزامنية وسيميولوجيا دياكرونية. إلا أن سيميولوجيا اللسان هي الجوهر والأصل والسيميولوجيا السانكرونية هي السيميولوجيا الدالة بحيث تنظر إلى العناصر السيميولوجية في تلازمها وتضاييفها.

2. سيميولوجيا التواصل

نجد، من بين تصورات السيميولوجيا التي تستلهم سوسير، التصور الذي يمثله كل من بريطو Prieto ومونان Mounin وبويسنس Buysens. ويحكم هذا التصور مبدأ لا يرى في الدليل غير كونه أداة تواصلية أو أداة قصد تواصلية.

إن الوظيفة الخاصة بالبنيات السيميوطيقية التي نسميها بالألسنة هي التواصل. ولا تختص هذه الوظيفة بالألسنة وإنما توجد أيضاً في البنيات السيميوطيقية التي تشكلها الأنواع السننية غير اللسانية (9).

وبذلك يمكن للسيميولوجيا، حسب (بويسنس)، أن تُعرَّف باعتبارها دراسة طرق التواصل، أي دراسة الوسائل المستخدمة للتأثير على الغير والمُعترف بها بتلك الصفة من قبل الشخص الذي تتوخى التأثير عليه (10). بل إن السيميولوجيا، كما يقول بريطو، ينبغي عليها

أن تهتم فيما يرى بويسنس بالوقائع القابلة للدراك والمرتبطة بحالات للوعي والمنتجة بقصد التعريف بحالات الوعي هاته (11).

وبعبارة أخرى، فإن التواصل هو الذي يشكل موضوع السيميولوجيا. والتواصل المقصود هو من جنس التواصل اللساني لأن هذا التواصل هو التواصل الحق. فكيف يتحدد التواصل؟

يرى بويسنس أن جهة نظر السيميولوجي تفرض علينا اللجوء إلى الوظيفة الأولية للغة: أي التأثير على الغير... إلا أنه من الممكن التأثير على الغير دون إرادة ذلك... ويتعلق الأمر، في هذه الحالة، بالأمارات. والسيميولوجي لا يدرس هذه الحالات، ذلك أنه يقتصر على الوسائل التعاقدية (12). ويقول بريطو إن استعمال العلامات هو الذي يحدد التواصل: إذ يمكن الحديث عن فعل تواصل أو فعل معنوي (سيمي) في كل لحظة يحاول فيها مرسل، وهو في طور إنتاج علامة ما، إمداد مستقبل بإشارة معينة indication (13).

إنه يستحيل الحديث عن تواصل أو فعل معنوي (= سيمي) لأن بعض الوقائع (= الامارات) حينما تدل، فهي تؤثر على الغير في استقلال عن إرادة المتكلم، ذلك أن الواقعة التي تمدنا بإشارة تشكل أمانة حينما يمكننا أن نستنتج، انطلاقاً من ملاحظة انتائها إلى صنف محدد، انتهاء واقعة أخرى إلى صنف آخر محدد (14).

وبخصوص الأمارات، يمكننا أن نميز ثلاث أمارات:

1 — الأمارات العفوية، وهي التي تتكون من الوقائع التي تمدنا بإشارات دون أن تكون هذه الوقائع قد أنتجت لهذا الغرض سواء تعلق الأمر بالوقائع الطبيعية أم بالوقائع المصنوعة من قبل الإنسان بشكل لا إرادي أو وقائع مصنوعة ذات قصد مغاير لقصد الإشارة. مثال: لون السماء الذي يشير، بالنسبة إلى صياد السمك، إلى حالة البحر يوم غد.

2 — الأمارات العفوية المغلوطة، ومثالها اللكنة التي ينتحلها متكلم ما راغب في إيهامنا بأنه أجنبي.

3 — الأمارات القصدية: ويتعلق الأمر بالوقائع التي توفر إشارات أنتجت قصداً لتوفيرها وهي إشارات لا تبْلُغ هذا الهدف إلا شريطة الاعتراف بها بوصفها أنتجت لتبْلُغ ذلك الهدف. مثال: علامات المرور. وتسمى الأمارة القصدية علامة (15).

(11) in le langage. Pléade P. 94

(12) La communication et l'articulation... P.12

(13) المرجع السابق ذكره. ص 18 — 19

(14) نفسه. ص 15

(15) نفسه. ص 15 — 17

هكذا يبدو أن هناك اشتراطا للقصدية التواصلية الواعية حتى صار الدليل أداة القصدية التواصلية. وإذا أخذنا بعين الاعتبار كل ما سبق، فإن موضوع السيميولوجيا هو الدلائل القائمة على القصدية التواصلية. ولهذا السبب سميت هذه السيميولوجيا بسيميولوجيا التواصل.

ويرى بريطو أنه من الممكن اعتبار سيميولوجيا التواصل فرعاً من سيميولوجيا تدرس البنيات السيميوطيقية مهما كانت وظيفتها. إلا أن سيميولوجيا من هذا النوع ستلتبس بعلوم الانسان منظورا إليها في مجموعها. إذ يبدو أن موضوع علوم الانسان جميعا هو البنيات السيميوطيقية التي لا تتميز فيما بينها إلا بالوظيفة التي تميز، على التوالي، هذه البنيات (16).

3. سيميولوجيا الدلالة

يُعزى هذا الاتجاه الى رولان بارت الذي يرى أن جزءاً كاملاً من البحث السيميولوجي المعاصر مرده، بدون انقطاع، إلى مسألة الدلالة: فعلم النفس والبنوية وبعض المحاولات الجديدة للنقد الأدبي.. كل ذلك لا يدرس، أبداً، الواقعة إلا باعتبارها دالة. وافترض الدلالة يعني اللجوء الى السيميولوجيا (17).

وإذن، فلا مهرب للأبحاث المعاصرة في العديد من الحقول المعرفية من الخوض مباشرة في مسألة الدلالة، وبالتالي، فإن المقاربة السيميولوجية مقارنة ضرورية لأن كل الوقائع دالة. بل إننا حينما ننتقل الى مجموعات ذات عمق سوسيولوجي حقيقي، فإننا نواجه، مجدداً، اللغة. ومن الأكيد أن الأشياء والصور والسلوكيات يمكنها أن تدل — وهي تقوم بذلك بوفرة — إلا أنها لا تقوم بذلك، أبداً، بصورة مستقلة. إن كل نسق سيميولوجي يمتزج باللغة (18).

إن كل المجالات المعرفية ذات العمق السوسيولوجي الحقيقي تفرض علينا مواجهة اللغة ذلك أن «الأشياء» تحمل دلالات. غير أنه ما كان لها أن تكون أنساقاً سيميولوجية أو أنساقاً دالة لولا تدخل اللغة ولولا امتزاجها باللغة. فهي، إذن، تكتسب صفة النسق السيميولوجي من اللغة. وهذا ما دفع ببارت إلى أن يرى أنه من الصعب جدا تصور إمكان وجود مدلولات نسق صور أو أشياء خارج اللغة؛ بحيث إن إدراك ما تدل عليه مادة ما يعني اللجوء، قدرنا، الى تقطيع اللغة؛ فلا وجود لمعنى إلا لما هو مُنتهى، وعالم المدلولات ليس سوى عالم اللغة (19).

(16) نفسه ص 11

(17) Mythologies P. 195 — 196

(18) Eléments de Sémiologie. gonthier P. 80

(19) نفسه. نفس الصفحة

واضح أن مدلولات الأنساق السيميولوجية لا تنشأ خارج اللغة بل داخلها، وبذلك فإن أي شيء لا يدل إلا بالاستعانة بما توفره لنا اللغة من تصور للعالم. ولا مجال لاسناد الدلالة الى هذه الأشياء لو لم نلجأ الى اللغة. وبذلك، فوجود المعنى يرتبط بالتسمية. وبالتالي، فإن اللغة هي التي تحقق لنا عالم المدلولات.

إن الأمر يتعلق، كما يرى أمبرطو إيكو وإيزابيلا بيتسيني، يكمن في أن بارت يوضح لنا كيف أن وقائع التواصل الانساني لا تُستنفد من خلال الكلام، ذلك أن إنسان الحياة اليومية خاضع، بالفعل، لركام مستمر من الرسائل التي لا تجسد، دائماً، قصدية مباشرة، وإنما هي رسائل تنزع، في الغالب، الى أن تُمثل في مظهر طبيعية «الواقع» البيئية بسبب من غائيتها الادولوجية (20).

وبمعنى ذلك أن إنتاج المعنى وتوفير التواصل يمكنه أن يتم بواسطة أنساق لفظية وأنساق غير لفظية. وهذا ما دفع بارت الى أن يسند وظيفة التواصل الى الأنساق اللسانية وإلى الأشياء. إلا أن السيميولوجيا مدعوة، رغم أنها تشتغل في البداية على مواد غير لسانية، إلى أن تلتقي باللغة سواء استعجلت أم لم تستعجل. وهي تلتقي باللغة لا باعتبارها نموذجاً فحسب، وإنما باعتبارها مكوناً كذلك (21).

لأن المعنى من إنتاج اللغة، فلا يمكن للسيميولوجيا إلا أن تلجأ إلى اللغة للوقوف على دلالة الأشياء. وبذلك، فاللغة تعتبر نموذجاً للسيميولوجيا إذ هي التي تمدنا بالمعاني والمدلولات. أي أن نموذج المعاني في السيميولوجيا نموذج لساني. وبالإضافة الى ذلك، فإن اللغة مكون للسيميولوجيا إذ يستحيل بناؤها ما لم تكن اللغة عنصراً بنائياً فيها.

إن في الطرح البارطي انتقاداً لأنصار سيميولوجيا التواصل الذين يعتبرون ما أتى به بارت عبارة عن أمارات وتجل بسيط. إلا أنه من الخطأ الاعتقاد بأن علم الدلائل قد نشأ، أولاً، باعتباره علماً للغة اللفظية، ثم توسعت مقولات اللسانيات بعد ذلك، لتستوعب مظاهر أخرى. بينما يقضي المشروع الأصلي للسيميولوجيا بالاعتراف بوجود «دليلية» signicité أولية تتجلى في العرض والأمانة، هذه الدليلية التي نجدها أيضاً في ما نسميه بالدلائل اللفظية (22). وفي الواقع، فإن علم الدلائل، منذ هيوقراط Hippocrate الى الرواقين، لا يخص اللغة اللفظية، وإنما يخص، قبل ذلك، العالم الطبيعي وبالتالي عالم الأشياء والصور والشارات. ولم يطبق مصطلح «دليل» على الكلمات كذلك إلا فيما بعد (23).

(20) المرجع السابق ذكره ص 20 — 21

(21) Eléments de sémiologie. gonthier P. 81

(22) Eco et Pezzini, op.cit P.22

(23) نفسه. نفس الصفحة

وبما أن بارط يربط إنتاج المعنى باللغة، فإن هذه الأنساق، مثل نسق التقلية La mode، مجموعة فرعية تابعة لنسق بدني عميق هو نسق اللغة اللفظية، ذلك أن «أنساق التواصل الأخرى الخطية والاشارة gestuels والمرئية الخ...» متفرعة عن اللغة المنطوقة وتفترض وجود اللغة» (24).

إذن، فإنه على سيميولوجيا النسق غير اللساني أن تستعير توسط اللسان، وعليه، فإنه لا يمكنها أن توجد إلا بواسطة/وفي سيميولوجيا اللسان... إن اللسان هو مؤول كل الأنساق الأخرى لسانية كان أم غير لسانية (25).

ولهذا السبب، فإن المعرفة السيميولوجية لا يمكن أن تكون راهنا غير نسخة من المعرفة اللسانية (26). وبذلك قلب بارط المعادلة السوسيرية قائلا: «إن اللسانيات ليست فرعاً، ولو كان مميزاً، من علم الدلائل، بل السيميولوجيا هي التي تشكل فرعاً من اللسانيات» (27).

4. سيميوطيقا بورس

تقوم سيميوطيقا بورس على المنطق والظاهراتية Phénoménologie والرياضيات. لذا يبدو ضروريا تقديم هذه المفاهيم والتعريف بها وإيجاد موقع لها في نسج السيميوطيقا البورسية. فالمنطق، بالنسبة الى بورس، فرع من علم التشكيل العام للدلائل أي فيزيولوجيا الدلائل أو السيميوطيقا (28). وتحدد المعرفة، منطقياً، بمعارف أخرى، ولا يمكنها أن تكون غير رمزية وحسدية أو مباشرة. ومن هنا يمكن تصور الفكر باعتباره إجرائية ترجمة تتم بواسطة الدلائل (29). وبذلك، فالمنطق هو العلم بالشروط التي تسمح للرموز، في عمومها، بأن تحيل على الأشياء، وعليه فهو فرع من الرمزية Symbolistique: هذا العلم الذي يدرس الدلائل، عامة، بوصفها دلائل. والرمزية، بدورها، فرع من السيميوطيقا أو العلم العام للتمثيل (30). إن المنطق، بمعناه الدقيق، هو علم الشروط الضرورية الموصلة الى الصدق. أما بمعناه العام، فهو علم القوانين الضرورية للفكر، أو بتعبير أفضل، هو علم الفكر الذي تجسده دلائل. إنه السيميوطيقا العامة (31). ويهتم المنطق بالظواهر التي لها غايات تمثيل شيء ما،

Benveniste. Problèmes de linguistique générale. I. P. 28 (24)

Benveniste. Problèmes de linguistique générale. II. P. 60 (25)

Barthes. Eléments de Sémiologie in communications N°4 P. 92 (26)

Eléments de Sémiologie. gonthier P. 81 (27)

Magalhães. un, deux, trois catégories fondamentales P. 14 (28)

(29) نفسه ص 18

(30) نفسه. نفس الصفحة

(31) نفسه. ص 38

فيكون المنطق بذلك، علم الثلاثية في عمومها (علم التمثيلات في علاقتها مع غائية معينة) (32). إنه فلسفة التمثيل.

ومنطق بورس هو منطق العلاقات. ولا يسمح المنطق الشكلي على وجه التقريب، كما تصوره هذا السيميوطيقي الأمريكي، إلا بدراسة البنيات المحمولىة من نوع «الموضوع محمول» «O est p»: ويحتوي هذا الشكل، في الجوهر، على موضوع يكمن دروه في تعيين الشيء أو الأشياء المتحدث عنها، ويحتوي على محمول يعبر عن خاصية الشيء أو الأشياء، ويحتوي على الفعل الذي ليس له أي دور سوى ربط الموضوع بالمحمول، وهو يعتبر كرابطة Copule. إلا أنه من المستحيل إعادة الاستدلالات الرياضية والعلمية الى هذا الشكل (33).

يتضح، إذن، أن المنطق، بمعناه العام، هو العلم الذي يدرس الفكر الذي تجسده دلائل أي علم التمثيل الرمزي للأشياء باعتباره ثلاثي الأبعاد. ولعله يتضح، كما لاحظ ذلك جاك دريدا Jacques Derrida أن السيميوطيقا غير خاضعة للمنطق (34) لأن المنطق، عند بورس، يرادف السيميوطيقا. يقول بورس: «إن المنطق، بمعناه العام،... ليس سوى تسمية أخرى للسيميوطيقا، إنه النظرية شبه الضرورية أو الشكلية للدلائل. وحينما أصف هذه النظرية باعتبارها «شبه ضرورية» أو شكلية، فإني أود أن أقول إننا نلاحظ خاصيات الدلائل التي نعرفها وأنها ننساق، انطلاقاً من هذه الملاحظة، بواسطة سيرورة لا أتردد في تسميتها بالتجريد، إلى أقوال خادعة للغاية، وبالتالي، فهي بأحد المعاني أقوال غير ضرورية إطلاقاً، وتعلق بما ينبغي أن تكون عليه خاصيات كل الدلائل المستعملة من قبل عقل «علمي»، أي من قبل عقل قادر على التعلم بواسطة الاختبار» (35).

إن المنطق يُعنى بدراسة الصلاحية، وعليه أن يتأكد من الصدق ما أمكنه ذلك. إنه يفحص الدلائل ويؤولها اعتماداً على الفرضية والاستنباط والاستقراء. ويتعلق الأمر «بكشف البنية الشكلية المتضمنة في كل تمثيل بواسطة كونها تتحقق بالدلائل لا غير» (36). ويعني ذلك أيضاً أن سيميوطيقا بورس تنأسس على فرضية مسماة بـ «البروتوكول الرياضي» والتي يكون الدليل وفقها ثلاثياً. ولقد سبق لبورس أن برهن على الطابع الضروري للثلاثية ذلك أنه لا يمكننا أن نفكر في العدد «واحد» دون أن نتصور، في نفس الآن حدّه Sa limite (ولنُسَمّه «اثنتين»). لكن تصور «واحد» و«اثنتين» بوصفهما كيانيين منعزلين (الوحدة والثنائية) يستلزم «ثالثاً» من طبيعة أخرى: أي طرفاً وسيطاً يغيرهما حال التفكير فيهما

(32) نفسه ص 58

(33) نفسه ص 29 — 30

(34) De la grammatologie P. 70 — 71

(35) Ecrits... P.120

(36) Bruzy et autres op.cit P. 30

بوصفهما كيانين مختلفين. إن ثلاثية ما لا يمكنها أن تحلل إلى ثنائية. بل إن كل علاقة بين أطراف تتجاوز «الثلاثة» يمكن إرجاعها إلى تركيبات ثلاثية. فالثلاثية، إذن، ضرورية وكافية في آن واحد : ضرورية منطقياً، وكافية تداولياً — ضرورة لبناء علاقات لا متناهية، غير أنها كافية بمعنى أنها تسد حاجيات الاقتصاد بواسطة الاختزال الممكن لأي عدد يتجاوز «ثلاثة» إلى تأليفات من «ثلاثة» (37). والرياضيات هي التي توفر أساس الثلاثية الظاهرية.

إن بورس يقدم السيميوطيقا باعتبارها العلم الذي يُمنطق الدلائل، فكانت السيميوطيقا، بذلك، العلم العام للدلائل في علاقتها مع الصدق. والظاهرية، إذن، هي منطق المُشاكل للواقع vraisemblable، ويسمح المُشاكل للواقع بإصدار حكم في الحالات التي لا نملك فيها يقينا تاما وإنما نملك تَبْدِيَاتِ apparences لا غير (38).

إن ما سماه بورس بالملاحظة التجريدية كفيّل بأن يوضح لنا علاقة السيميوطيقا بالمنطق. فلو افترضنا وجود إنسان يرغب في شيء ما يعجز عن اقتنائه فيتساءل : هل أنا راغب في هذا الشيء إلى هذا الحد، إلى حد اقتنائه لو توفرت لدي الامكانيات ؟ ولكي يجيب عن هذا السؤال، يعمد إلى تفحص ذاته ويخلق ما يسميه بورس بالملاحظة التجريدية. فهو يخلق، بواسطة خياله، نوعاً من الرسم — الهيكل أو يخلق خطاطة — نسخة عن نفسه، ثم يأخذ بعين الاعتبار التغيرات التي يتطلب هذا الشيء المحتمل إدماجها في هذه اللوحة ويتفحصها، أي أنه يلاحظ ما تخيله لكي يرى هل ما تزال عنده تلك الرغبة الشديدة في اقتناء ذلك الشيء أم لا ؟ (39). ثم يعقب بورس على ذلك مؤكداً أنه يمكننا، بفضل هذه السيورة التي تماثل، في العمق، بدرجة كبرى، الاستدلال الرياضي، أن نتوصل إلى خلاصات تتعلق بما سيكون صادقا من الدلائل في كل الحالات، شريطة أن يكون العقل الذي يستعملها عقلاً علمياً (40).

إن السيميوطيقا، إذن، هي ذلك العلم الذي يميز، داخل الدلائل، الدلائل الصادقة عن الدلائل الكاذبة، أو بعبارة أخرى، السيميوطيقا هي ذلك العلم الذي يفحص الدلائل فيكشف عن الوظيفتين اللتين قد تقوم بهما : وظيفة نقل الدلالة الصادقة ووظيفة نقل الدلالة الكاذبة.

وبناء على ذلك، فالسيميوطيقا تستهدف الكشف عما ينبغي أن يكون ولا تقتصر، فقط، على ماهو كائن في العالم. إنها علم الظواهر الموجودة والظواهر الضرورية، وعلم الفكر النقدي الذي يفتح مجالات أرحب أمام المحتمل والممكن من العوالم.

(37) نفسه ص 32

Nef. Note sur une argumentation de Peirce (à propos de la valence verbale) in (38) langages N° 58 P.93

Ecrits.... P. 120 — 121 (39)

(40) نفسه ص 121

إن اعتبار السيميوطيقا تسمية أخرى للمنطق يمكن النظر إليه من زاوية ثانية. ويتعلق الأمر، كما لاحظ ذلك دولودال، بالموقع الذي تحتله نظرية الدلائل داخل «العلوم» الأخرى؛ فحينما نقول إن نظرية المقولات تفسر نظرية الدلائل عند بورس، فإن الأمر يتعلق بشيء آخر : إن الأمر يتعلق بالنسق أو بالسياق التفسيري للحالة (41). فعلى أي علم تحيل السيميوطيقا ؟ إن التحليل «المنطقي» للدلائل هو التحليل الوحيد الذي يصنف المشاكل إلى فئات.

أما بخصوص الرياضيات، فموضوعها، عند بورس، يكمن في صياغة الفرضيات واستنباط النتائج منها. إنها تستدعي الملاحظة بحيث تضع بناءات في الخيال وفق قواعد مجردة وتلاحظ هذه الأشياء الخيالية وتجد علاقات بين أجزائها (42). وتكتفي الرياضيات بأن تفصح عما سيكون صادقا إذا كانت بعض الفرضيات صادقة (43).

أما الظاهرية فهي الدراسة التي تصف خاصيات الظواهر في مقولاتها الثلاث. ويعني ذلك أن سيميوطيقا بورس تتأسس على تحليل مقولات الوجود بوصفه كيفية وموجوداً وضرورة إذ تهتم بتمظهر الدليل. ولهذا السبب، فإن لسيميوطيقا بورس طبيعة ضرورية ظاهرية. وعلى هذا الأساس، تكون السيميوطيقا هي العلم الذي يدرس الدلائل اللسانية وغير اللسانية. ومن الواضح أن مفهوم الدليل ما كان له أن يكون كذلك لو لم يُوسَّع ليشمل مختلف الظواهر كيفما كانت طبيعتها. وقد أكد بورس أنه لم يكن بوسعها أن يدرس أي شيء، مثل الرياضيات والأخلاق والميتافيزيقا والجاذبية وعلم الأصوات والاقتصاد وتاريخ العلوم... الخ، إلا بوصفه دراسة سيميوطيقية. (44).

والسيميوطيقا، عند بورس، هي أيضاً «نظرية الطبيعة الجوهرية للسيميوزيسات Sémiosis الممكنة وتنوعاتها الأساسية» (45). إنها نظرية تعاون الذوات الثلاثة المكونة للدليل أو نظرية التأثير الثلاثي العلاقة.

وإذا أخذنا بعين الاعتبار المؤول الدينامي، فإن السيميوزيس أو فعل الدليل سيتخذ سيورة لا نهاية لها، الشيء الذي يجعل من السيميوطيقا علماً صارماً للظواهر الثقافية في تحريره إياها من أية ميتافيزيقا للمرجع (46). ولعله يبدو واضحاً أن فعل الدليل اللامتناهي واللامحدود هو، وحده، الذي يضمن تأسيس نسق سيميولوجي قادر على أن يوضح نفسه بنفسه

Deledalle. commentaire P. 212 (41)

Magalhães, Un, Deux, Trois catégories fondamentales P. 43 — 44 (42)

(43) نفسه ص 44

Deledalle. commentaire P. 212 (44)

Ecrits... P. 135 (45)

Carontini. L'action du signe P. 27 (46)

بواسطة وسائله الخاصة لاغير (47). إن المعنى لا يوجد خارج اللغة، وإنما هو في فعل التواصل ذاته وفعل الكلام وفعل الانتاج (48).

بل إن فعل الدليل يوجد، دائماً، في إطار سيرورتين متناقضتين ومتكاملتين في النهاية : فمن جهة، هناك سيرورة تتأسس في القوانين الداخلية للغة، تلك القوانين التي ليس للغة معايير أخرى غير ممارستها الخاصة؛ ومن جهة ثانية، هناك سيرورة تتأسس في شروط تاريخية ملموسة تتأطر داخلها الممارسة الدالة وتبرز على مستوى اللغة قيود الممارسة الدالة وتناقضاتها ومعاييرها الخاصة (49).

وبذلك تكون السيميوطيقا عند بورس، هي ذلك العلم الذي بإمكانه أن يدرس ويستوعب مختلف العلوم بما أن لبعض الدلائل مؤولات نهائية ذات طبيعة معرفية وعقلية «وتكمن وظيفتها في إنتاج مراقبة مقصودة ونقدية للعادات أو الاعتقادات. وهنا يوجد المجال الخاص بالمعرفة الفلسفية أو العلمية التي تبلور، في أوقات محددة من تاريخها، سلسلة من المعايير التي تسمح بتحديد ماهو صادق، سواء كان هذا الصدق مفكراً فيه باعتباره ملائمة (= كفاية) أو باعتباره انسجاماً داخلياً أو باعتباره مُشاكلاً للواقع» (50).

ولهذا السبب، لم يكن بإمكان بورس أن يدرس مختلف العلوم إلا باعتبارها ظواهر دالة ما دامت أنشطة رمزية ينجزها الإنسان. ويترب عن هذا التصور أن تكون سيميوطيقا بورس سيميوطيقا مفتوحة، «فهي تجد مزيته ووحدها (في مختلف العلوم)» (51).

وسيميوطيقا بورس، فيما يرى دولودال، لا يمكن فصلها، بوصفها نظرية، عن فلسفته التي تتسم بكونها استمرارية وواقعية وتداولية. فهي استمرارية في معارضتها للنزعة التوحيدية monisme والنزعة الثنائية dualisme ذلك أن الفكر ليس ملكة معرفية موجودة خارج الموضوع الذي ينبغي معرفته (شيئاً أو طبيعة) وإنما هو سيرورة في الأشياء في استمرارية خلاقة معها (52). وهي واقعية في معارضتها للاسمية nominalisme إذ ينتسب الواقع إلى ماهو حاضر بالنسبة إلينا في المعرفة الحق كيفما كانت (53). وهي تداولية لأن منهجها يفضي إلى وقائع عملية (54).

Eco. la structure absente P. 66 — 67 (47)

Carontini P. 27 (48)

(49) نفسه ص 29

(50) نفسه. نفس الصفحة

Deledalle. Théorie.... P. 192 (51)

(52) نفسه ص 14

(53) نفسه ص 15

(54) نفسه ص 16

ويمكن النظر إلى سيميوطيقا بورس باعتبارها سيميوطيقا التمثيل والتواصل والدلالة في آن واحد. وهكذا، فإن للدليل، باعتباره دليلاً، وجوده الخاص : فالسفير مثلاً، رغم أنه يمثل بلاده، هو سفير بالنسبة إلى نفسه بتاريخه الخاص الذي يميزه عن من كان يشغل نفس المهمة قبله (55). وعليه، فهذا البعد بعد تمثيلي. أما البعد الثاني فهو البعد الدلالي : فالسفير يقوم بدور معين في الوقت الذي يقدم فيه أوراق اعتماده. ويحيل هذا «الدور» على الدلالة التي هي قاعدة تأويلية في نسق الدلائل المؤولة. فتقديم أوراق الاعتماد لعبة لها قواعدها، ودلالة الاشارات gestes دلالة عامة. إن الدلالة عبارة عن قاعدة للفعل : فهي تحدد معنى كل فعل من نفس النمط داخل نسق معطى من الدلائل (56). والبعد الثالث، بعد تواصل ذلك أن الكلمات «في الوقت الذي» تشير إلى أن اللعبة قيد الانجاز : فالتواصل الذي يشكله تقديم أوراق الاعتماد تواصل قيد الانتاج. وعليه، فالتواصل فعل فردي ملموس، وحدث تاريخي وحدث في التاريخ (57). ويلاحظ دولودال أن هذه الأبعاد الثلاثة يمكن النظر إليها باعتبارها، على التوالي، أولية (تمثيل) وثانوية (تواصل) وثالثية (دلالة) (58). ويمكن القول، هنا، إن سيميوطيقا بورس سيميولوجيا تواصلية إلا أنها تتناول الدلالة. وتجدر الإشارة إلى أنه لا ينبغي الخلط بين سيميوطيقا التواصل والتواصل السيميوطيقي ذلك أن السيميوطيقا هي علم الدلائل وليست علم الناس الذين يتواصلون بالدلائل خاصة وأن الإنسان ذاته، في نظر بورس، عبارة عن دليل (59).

ومن جهة ثانية، يمكن اعتبار سيميوطيقا بورس اجتماعية وجدلية، بحيث إن سيميوطيقاه تعتمد على علم الاجتماع، فهي، بالتحديد، اجتماعية لأنها ليست نفسية (60). وهي جدلية لأنها ليست نظرية دليل سكوني أو مادي، وإنما هي نظرية السيميوزيس ونظرية سيرورة إنتاج الدلائل، نظرية السيرورة الجدلية (61). وبذلك، فالشغل النظري الأساسي يتجلى في العلاقات بين إنتاج المعنى وبناء الواقع واشتغال المجتمع (62).

وتتسم سيميوطيقا بورس، علاوة على ذلك، بأبعاد ثلاثة : بعد تركيبية وبعد دلالي وبعد تداولي. ويعود ذلك إلى أن الدليل ثلاثي. والبعد الأول هو بعد الممثل أو الدليل باعتباره دليلاً. ومن البديهي أن الدليل اللساني ليس سوى حالة خاصة. والبعد الثاني هو بعد موضوع

(55) نفسه ص 38

(56) نفسه. نفس الصفحة

(57) نفسه. نفس الصفحة

(58) نفسه. ص 38 — 39

(59) نفسه. ص 89

(60) نفسه. ص 200

(61) نفسه. نفس الصفحة

Veron. la sémiosis et son monde in langages N°58 P.74 (62)

الانسانية يوجد اختلاف لا ريب فيه. ففي الحالة الأولى، يناسب مشير stimulus خارجي استجابة مباشرة؛ وفي الحالة الثانية، تكون الاستجابة منقولة نقلا غير مباشر. فهي موقوفة ومؤخرة من قبل سيورة الفكر البطيئة والمعقدة (68).

إن الانسان لا يحيا في عالم مادي خالص، وإنما يحيا في عالم رمزي. فاللغة والأسطورة والفن والدين هي عناصر من هذا العالم. إنها جميعا خيوط مختلفة تخلق نسيج الرمزية... وكل تقدم في فكر الانسان وتجربته يعقد هذا النسيج ويقويه. ولا يمكن للانسان، بعد الآن، أن يوجد أمام الحضور المباشر للواقع؛ ولا يمكنه أن يراه وجها لوجه، إذا صح ذلك. إذ يبدو أن الواقع المادي يتراجع بمقدار ما يتقدم النشاط الرمزي. إن الانسان، بشكل من الأشكال، يتعد عن إقامة علاقة مع الأشياء ذاتها ويتقابل مع نفسه على الدوام. إذ تحيط به أشكال لسانية وصور فنية ورموز أسطورية وطقوس دينية بحيث لا يمكنه أن يرى أي شيء وأن يعرف أي شيء دون تدخل هذا العنصر الوسيط الاصطناعي.... إن العالم العملي للانسان ليس عالم وقائع خام حيث يعيش حسب رغباته وحاجاته المباشرة. بل إنه يعيش أهواءه وأحلامه في وسط الانفعالات الخيالية وفي الأمل والخشية والأوهام والحقائق (69).

ويتهيئ كاسيرر إلى أن مصطلح العقل ليس ملائما لاستيعاب أشكال الحياة الثقافية للانسان في غناها وتنوعها. وهذه الأشكال جميعها أشكال رمزية. ومن هنا، يرى كاسيرر ضرورة تعريف الانسان بوصفه حيوانا رمزيا animal symbolicum (70). وبهذا التعريف، نتمكن من تعيين الاختلاف الخصوصي للانسان. لكن، ما معنى الرمز عند كاسيرر؟ يؤكد كاسيرر، محاولا تحديد مفهوم الرمز، أن الرموز — منظورا إليها في معناها الخاص — لا يمكن إرجاعها الى مجرد علامات. إن العلامات والرموز تنتسب الى عالمين خطابين مختلفين: فالعلامة عنصر من العالم الفيزيقي للكائن، بينما الرمز عنصر من العالم الانساني للمعنى. إن العلامات عبارة عن «إجرائيات» «opérateurs»، بينما الرموز عبارة عن «مُشيرَات» «indicateurs». وحتى لو فُهِمَت العلامات واستُعْمِلَت بوصفها إجرائيات، فإن لها، مع ذلك، نوعا من الوجود الفيزيقي أو المادي؛ أما الرموز فلها قيمة وظيفية لا غير (71).

ومن هذا المنطلق، يعالج كاسيرر قضية ذكاء الحيوانات فيخلص إلى أن للحيوان خيالا وذكاء عمليين بينما تمكن الانسان من تطوير شكل جديد لا غير: أي خيال وذكاء رمزيين (72).

الدليل أي ما يعينه الدليل أي المعنى. والبعد الثالث هو بعد المؤول الذي يجعل الدليل يحيل على موضوعه لأن قواعد الدلالة تتوفر فيه (63).

إن البعد الأول بعد أولي، ويتعلق الأمر بالدلائل اللسانية وغير اللسانية، ويتشكل من مختلف الوحدات التي يتكون منها الدليل. فلو أخذنا اللغة على سبيل المثال لقلنا إنها تتكون من فونيمات (صَوِّيات) ومورفيمات (وحدات صرفية) ووحدات معجمية. وتشكل هذه الوحدات البعد التركيبي للدلائل الذي يتكون من الدليل — الكيفية والدليل المفرد والدليل القانون. وباختصار، فإن هذا البعد يتكون من الممثلات les representamen (أو الدلائل منظورا إليها بوصفها دلائل) الموجودة في كل الأنساق السيميوطيقية (64).

أما البعدان الآخران فهما البعد الثانوي الذي يهتم بالمعاني في علاقتها مع سياقها، والبعد الثالثي الذي يُعْنَى بقواعد التأويل أي علاقة الدلائل بالنظر الى مؤولاتها. ولا بد من القول هنا بأن المعاني لا تمدنا بها اللغة بوصفها أولية أو الأشياء بوصفها ثانوية، وإنما تمدنا بها «الثالثة أي الفكر الذي هو موضوع التداولية. وإذن، فلا وجود لعلم الدلالة بدون تداولية» (65). ولهذا السبب، فإن دراسة أي نسق دال، من جهة نظر المعنى، لن تكون، إذن، غير دراسة دلالية — تداولية. ذلك أن الدليل المؤول يمدنا بالمعنى أو بالدلالة. «إنه ليس سوى الوسيلة والدعامة الأولية والموقع الثانوي والقاعدة الثالثة لكي يسند معنى أو دلالة إلى موضوع يُمَثَّل أمامنا بواسطة الدليل اللساني» (66). إن الاستعمال الذي نقوم به في الممارسة العملية وفي عالم الموضوعات هو الذي يكسب الدلائل المعنى أو الدلالة. ورغم أن بورس قد فصل بين هذه الأبعاد الثلاثة، فإن التواصل الدال لا يتم من دون تعاونها المشترك الثلاثي ذلك أننا نستمد معنى (2) دليل لساني معطى (1)، في التواصل الواقعي، من خلال نسق قواعد استعمال الدليل، وهذه القواعد هي التداولية (3) (67).

5. رمزية كاسيرر Cassirer

تقوم رمزية كاسيرر على مجموعة من المنطلقات الفلسفية الخاصة بطبيعة النوع الانساني في تمييزها عن طبيعة النوع الحيواني. ذلك أن الانسان يتميز عن كل نوع حيواني بما يمكن تسميته بالنسق الرمزي. وهذا المكسب الجديد من شأنه أن يغير مجموع الحياة الانسانية. فالانسان، بمقارنته مع الحيوانات الأخرى، لا يحيا فقط في واقع جد شاسع، وإنما يحيا، إذا صح القول، في بعد جديد للواقع. فما بين ردود الفعل العضوية والاستجابات

(63) Deledalle. Théorie--- P. 137 — 138

(64) نفسه. انظر الصفحات 139 — 146

(65) نفسه. ص 147

(66) نفسه. ص 149

(67) نفسه. ص 137

Essai sur l'homme P. 43 (68)

(69) نفسه ص 43 — 44

(70) نفسه ص 44 — 45

(71) نفسه ص 53 — 54

(72) نفسه ص 55

لقد انتقل الانسان من موقف عملي صرف إلى موقف رمزي، ومن استعمال الدلائل والبانتوميم pantomime إلى استعمال الكلمات أي الرموز. ويقتضي فهم اللغة الانسانية وفهم ما تدل عليه أن يفهم الطفل أن لكل شيء اسما، وأن يفهم أن الوظيفة الرمزية لا تقتصر على حالات خاصة وإنما هي مبدأ قابلية للتطبيق كلية يغطي حقل الفكر الانساني كله. فالطفل يتعلم كيف يستخدم الكلمات، لا بوصفها مجرد دلائل أو علامات ميكانيكية، وإنما بوصفها أداة فكر أصيلة تمام الأصالة (73). هكذا، إذن، نتمكن من فهم رمزية اللغة الانسانية.

إن مبدأ الرمزية، من خلال خاصيته الكلية وقوته وقابليته للتطبيق العامة، هو الكلمة السحرية وشمشون العالم الانساني، إنه كلمة الثقافة (74).

ويذهب كاسيرر الى أن حياة الانسان، بدون الرمزية، ستكون مماثلة لحياة سجناء الكهف حسب صورة أفلاطون الشهيرة. لكنها ستكون مقتصرة على الحاجيات البيولوجية والمصالح العملية، ولن تجد أي مدخل الى «عالم المثل» الذي يفتح أمام الانسان الدين والفن والفلسفة والعلم بطرق مختلفة (75). إن الانسان، قبل أن يكتشف، بكثير، الشكل السياسي للتنظيم الاجتماعي (أي الدولة)، كان قد حاول تنظيم مشاعره ورغباته وأفكاره. وهذه التنظيمات والتنسيقات متضمنة في اللغة والأسطورة والدين والفن (76). إن فلسفة الأشكال الرمزية تنطلق من الافتراض القائل بأنه إذا وُجد تعريف طبيعة الانسان أو «جوهره»، فإن هذه الطبيعة ينبغي أن تُفهم باعتبارها تعريفا وظيفيا لا تعريفا ماديا. فلا يمكن أن يعرف الانسان من قبل أي مبدأ ملازم يشكل جوهره الميتافيزيقي، كما لا يمكن أن يعرف من قبل أية ملكة فطرية أو غريزة قابلية لأن يُتأكد منهما بواسطة الملاحظة الأمبريقية. إن الخاصية المهيمنة للانسان وملحمه المميز ليس هو جوهره الميتافيزيقي، وإنما هو نتاجه. إن هذا النتاج ونسق أنشطته هو الذي يعرف دائرة «الانسانية» ويحددها. واللغة والأسطورة والدين والفن والعلم والتاريخ مكونات هذه الدائرة وقطاعاتها المتنوعة (77). ومن الملاحظ أن الفكر الفلسفي يكشف، من خلال تعدد الصور الأسطورية والمذاهب الدينية والأشكال اللسانية والنتاجات الفنية وتنوعها اللانهائيين، عن وحدة وظيفة عامة تربط بين كل هذه الابداعات. إن الأسطورة والدين والفن واللغة وحتى العلم تعتبر بوصفها تنوعات على الموضوع المشترك (78).

(73) نفسه ص 57

(74) نفسه ص 58

(75) نفسه ص 65

(76) نفسه ص 97 — 98

(77) نفسه ص 103

(78) نفسه ص 107

ويعتقد كاسيرر أنه ليس بوسع الانسان أن يقوم، في اللغة والدين والفن والعلم، بأي شيء أكثر من بناء عالمه الخاص، عالم رمزي يجعله قادرا على فهم تجربته وتأويلها والتلفظ بها وتنظيمها وتوليدها وجعلها كلية (79). ومؤدى ذلك أن المعرفة الانسانية، في طبيعتها، معرفة رمزية، وأن الرمز لا وجود له فعليا باعتباره جزءا من العالم الفيزيقي، إن له «دلالة» (80). بل الأدهى من ذلك، إن وقائع العلم تستلزم، دائما عنصرا نظريا، أي، رمزيا (81).

وبخصوص الذاكرة الرمزية، فإنها، عند كاسيرر، السيرورة التي لا يكرر الانسان فحسب بواسطتها تجربته الماضية، وإنما يعيد، أيضا، بناءها (82). إن الذاكرة تستلزم سيرورة تعرف وتحديد، سيرورة مثالية جد معقدة. فالانطباعات السابقة لا ينبغي فقط أن تُكرر وإنما ينبغي أيضا أن ترتب وتُوضَّع وتُحَال على مختلف لحظات الزمن (83). إنها ليست تكرارا للماضي، وإنما هي ولادة جديدة تستلزم سيرورة الخلق والبناء. إنه لا يكفي الوقوف على العناصر المعزولة لتجربتنا الماضية، وإنما يتعلق الأمر، في الحقيقة، بتجميعها وتنظيمها وتوليدها وجمعها في منطقة ما من الذهن (84).

وبذلك يمكن القول إن الثقافة، في مجموعها، يمكن أن ينظر إليها بوصفها عملية التحرر التدريجي للانسان. واللغة والفن والدين والعلم هي اللحظات المختلفة لهذه العملية. وفي كل لحظة من هذه اللحظات يكتشف الانسان سلطة جديدة ويبرهن عليها — إنها سلطة بناء عالمه الخاص، العالم «المثالي» (85). ويبدو أن الأطروحة الكبرى التي يوضحها كاسيرر تكمن في أن الذهن ينتج ويبنى موضوع معرفته الخاص. ويترتب عن ذلك تصور منطقي للرياضيات ومقاربة سيميوطيقية للثقافة منظورا إليها باعتبارها إعدادا «لأشكال رمزية» (86).

6. سيميوطيقا الثقافة

ينطلق هذا الاتجاه الذي نشأ في كل من روسيا (يوري لوتمان، أوسبانسكي Ouspensky، إيفانوف Ivanov، طوبوروف Toporov...) وإيطاليا (أمبرطو إيكو، روسي لاندي...) من اعتباره الظواهر الثقافية موضوعات تواصلية وأنساقا دلالية.

(79) نفسه ص 307

(80) نفسه ص 86

(81) نفسه ص 89

(82) نفسه ص 80

(83) نفسه ص 78

(84) نفسه ص 79

(85) نفسه ص 317

Rey. Théories du signe et du sens. II. P. 163 (86)

إن العلاقات الاجتماعية الانسانية لا تقوم مالم تنسج علاقات تواصلية. ويتوخى الانسان في نشاطه جميعه وفي فعاليته إعداد الاخبار وتبادلها والحفاظ عليه. وانطلاقا من هذا الاعتبار، فإن الثقافة يمكن أن تُعرّف بوصفها مجالا لتنظيم الاخبار في المجتمع الانساني، فتعتبر بذلك آلية الثقافة بمثابة جهاز يغير المحيط الخارجي الى محيط داخلي إذ يحول الفوضى الى نظام والناس الغفل الى متعلمين ومرتكبي الخطايا الى عادلين وانحطاط الطاقة L'entropie الى إخبار (87).

وبهذا المعنى، فإن الثقافة لا تقوم إلا في الوقت الذي يصنع فيه الانسان أدوات للسيطرة على الطبيعة. ومن المعلوم أن الأداة ذاتها لا تبرز الى الوجود إلا حينما يقام نشاط رمزي. وفي هذا السياق، يرى أمبرطو إيكو أن الثقافة لا تنشأ إلا حينما تتوفر الشروط الثلاثة التالية : أ — حينما يسند كائن مفكر وظيفة جديدة للشيء الطبيعي...

ب — حينما يسمي ذلك الشيء باعتباره يُستخدم إلى شيء ما، ولا يشترط أبدا قول هذه التسمية بصوت مرتفع كما لا يشترط فيها أن تقال للغير.

ج — حينما نتعرف على ذلك الشيء باعتباره شيئا يستجيب لوظيفة معينة وباعتباره ذا تسمية محددة، ولا يُشترط استعماله مرة ثانية وإنما يكفي مجرد التعرف عليه.

وعلاوة على ذلك، فإن هذه الشروط الثلاثة لا تستلزم وجود كائنين إنسانيين، بل إن هذا الوضع ممكن حتى في حالة روبنسون كروزوي Robinson Grusoé الغريق المنعزل. إلا أنه من الضروري، بالنسبة الى الشخص الذي يستعمل هذا الشيء لأول مرة، أن يكون قادرا على مواجهة إمكان نقل الاخبار المكتسب لـ «أنا» الغد، وإذن لا بد أن يكون قادرا على معرفة إعداد صناعة تذكيرية. فاستعمال ذلك الشيء مرة واحدة ليس من قبيل ماهو ثقافي، لكن الثقافي يكمن في ضرورة تكرار الوظيفة ونقلها لإخبار غريق «اليوم» المنعزل الى نفس غريق «الغد» المنعزل، والثقافي أيضا يكمن في كيف يتأتى لتلك الوظيفة أن تتكرر وأن تنقل الاخبار بنفس الطريقة المذكورة أعلاه. إن المنعزل يتحول الى مرسل تواصل ومتلق له. ومن الواضح أن تعريفا مثل هذا التعريف يمكن أن يستلزم تماهي الفكر واللغة، ويتعلق الأمر بأن نقول — مع بورس — إن حتى الأفكار تعتبر دلائل. إلا أن المشكل لا يطرح بهذه الطريقة القصوى إلا حينما نتوقف عند مثال الغريق الذي يتواصل مع نفسه. ومنذ أن يتعلق الأمر بفردين، يكون من الممكن دراسة هذه القضية بمنطق ناقلات الدليل القابلة للملاحظة لا بمنطق الأفكار (88).

إن الثقافة، إذن، لا تنشأ إلا حينما تتمثل الخارج تمثلا داخليا وذاتيا أي حينما تنتقل من الطبيعي بواسطة الفكر وبواسطة التجريد فنسمي الأشياء الطبيعية ونسند إليها وظيفة معينة ونقوم بتذكرها على تلك الهيئة. ويعني ذلك تمييز الأشياء عن بعضها البعض بواسطة الفكر ووضع سمات لها تميزها عن باقي الأشياء وتستحضرها في حال غيابها المادي. وبذلك، فإن الدلائل تتماهى مع الفكر.

وعليه، فإن الثقافة تنشأ كلما تحولت أية وظيفة، بصفة آلية، إلى دليل لهذه الوظيفة. إن الثقافة تقوم بانتقاء بعض الظواهر فنسند إليها وظيفة «دلائل» في الوقت الذي تُبلّغ فيه شيئا ما في شروط ملائمة (89). إلا أنه يمكن أن نميز داخل الظواهر الثقافية تلك الظواهر التي هي «دلائل» عن تلك الظواهر التي يبدو أن لها وظائف أخرى غير التواصل، فالسيارة، مثلا، تستعمل للنقل لا للتواصل (90).

إن الحديث عن الثقافة لا يصح بمعزل عن الذاكرة بحيث إن جوهر الثقافة ينبغي أن ينظر إليه بوصفه ذاكرة. يقول إيفانوف وآخرون : «إننا لو اعتبرنا جماعة ما بوصفها فردا ذا بنية مركبة، فإنه يمكن أن نفهم الثقافة، في تماثلها مع الآلية الفردية للذاكرة، باعتبارها جهازا جماعيا للحفاظ على الاخبار ومعالجته» (91). ولهذا السبب، فإنهم يرون أن البنية السيميوطيقية للثقافة والبنية السيميوطيقية للذاكرة تماثلان ظاهرا من نمط واحد وظيفيا و متموقة في مستويات مختلفة. ولا يناقض هذا الاقتراح ديناميكية الثقافة : إذ يمكن للثقافة، أيضا، إلى جانب كونها مبدأ ترسيخ التجربة السابقة، أن تلعب دور البرنامج وأن تشتغل بوصفها تعليمات قصد خلق نصوص جديدة (92).

يبدو، ضمن هذا المنظور، أن الثقافة ترسخ التجربة السابقة. بواسطة التذكر أو الصناعة التذكيرية. إن الانسان يراكم ويُعدّد الاخبار المستعمل لادخال تصحيحات ضرورية في برامج السلوك. ويعني ذلك أن حصيلة عمل الانسان تكمن في سلوك ذي معنى، وهذا السلوك ليس سوى إنجاز لبرنامج معين. وهذا البرنامج المعين هو الثقافة. بل يصح القول إن الثقافة تلعب دور البرنامج. إنها تلك التعليمات التي تتحكم في كل سلوك الانسان أو التي يصدر عنها كل سلوك إنساني. أي إننا نصوغ من خلال الثقافة (= البرنامج والتعليمات) الواقع الذي نعيش فيه والعالم الذي نحيا فيه.

وتتكون الثقافة من عدة أنساق دالة مادام لكل سلوك معنى؛ وما دمنا نتواصل بواسطة سلوكاتنا، فهذه الأنساق أنساق تواصلية تتراوح بين الأنساق الأكثر تعقيدا والأنساق الأقل

(89) نفسه. ص 23

(90) نفسه. ص 25

(91) Ivanov et autres op.cit P.143

(92) نفسه. ص 143 — 144

(87) Ivanov et autres. Thèses pour l'Etude sémiotique des cultures in Recherches internationales à la lumière du marxisme N°81 P. 126

(88) Eco. la structure absente. P. 26 — 27

تعقيدا، ويتعلق الأمر باللغات الطبيعية واللغات الاصطناعية والفنون والأساطير والطقوس... الخ. وإذا كان الأمر كذلك، فـ «إن نسقا سيميوطيقا معزولا، مهما كان تنظيمه كاملا، لا يمكنه أن يشكل بمفرده ثقافة... ذلك أن النزوع نحو لا تجانس اللغات يعتبر ملمحا مميزا للثقافة» (93).

إن إدراك الانسان للعالم الحسي إدراك تبرجه الثقافة بواسطة أنساقها الدالة اللفظية أو غير اللفظية التي تؤثر عمل الانسان وممارسته الاجتماعية. ولذلك يمكن اعتبار الثقافة نسقا مكونا من عدة أنساق أو من عدة لغات. وليست كل لغة من هذه اللغات نسقا تواصليا فحسب، بل هي نسق مُنَمَّج modelant، أو بالأحرى، فإن الوظيفة التواصلية والوظيفة النمذجة وظيفتان مرتبطتان بشكل لا انفكاك فيه (94)، أي أن هذه الأنساق تُنَمَّج الكلي في مقولاته العامة. وإذا كان النسق النمذج الأول هو اللغة الطبيعية، فإن الأنساق النمذجة الثانية هي باقي الأنساق الدالة. ويقصد لوتمان بـ «الثانوية» كون هذه الأنساق أنساقاً تستخدم اللغة الطبيعية بوصفها أداة أولية (95). ويعتقد يوري لوتمان أن اللغة الطبيعية ليست نسقا من الأنساق المبكرة فحسب، بل هي كذلك النسق الأقوى للتواصل داخل الجماعة الإنسانية. فهي تمارس، بفضل بنيتها ذاتها، تسلطا قويا على نفسية الأفراد وعلى جوانب عديدة من الحياة الاجتماعية. أما الأنساق النمذجة الثانوية فهي تُبنى على منوال نمط اللغة (96).

لا يمكن، إذن، إلا أن نتصور الثقافة بوصفها نسقا عاما يتكون من أنساق ثقافية تصوغ بدورها العالم بشكل خاص ومتفرد وخاضع لقوانين ثقافية خاصة. وبذلك فالثقافة ذات لغات غير متجانسة لأنها متعددة ومتنوعة، وكلما اخترت نسقا إلا واخترت نمذجة خاصة للعالم يطبعها نظام النسق الذي اخترته.

وباعتبار الثقافة نسق أنساق معتمد في نهاية التحليل على لغة طبيعية، فإنه يمكن اعتبارها هرما من الأنساق الدالة المزدوجة التي يتحقق تعالقها، إلى حد كبير، بواسطة علاقتها مع نسق اللغة الطبيعية (97).

إن كل نسق ثقافي نسق تواصلية ذلك أن الموضوع الثقافي قد صار بمثابة المحتوى الممكن لأية عملية تواصلية وأن كل تواصل يستلزم، بالضرورة، تبادل علامات. ومن جهة ثانية، ينبغي أن يُنظر إلى الظواهر الثقافية بوصفها مدلولات يتواصل بها الناس.

(93) نفسه. ص 146

(94) Lotman. la structure du texte artistique P. 42

(95) نفسه. ص 36

(96) نفسه. ص 36 — 37

(97) Ivanov et autres op.cit P.147

وبذلك يكون كل تواصل عبارة عن تواصل بواسطة سلوك مبرمج، ويكون بمقدور كل نسق تواصلية أن يؤدي وظيفة، كما يمكن لأي نسق مُنَمَّج أن يقوم بدور تواصلية. وفي هذا الإطار، يرى أمبرطو إيكو أن الثقافة ليست تواصلًا فحسب، بل ينبغي، حتى نفهمها بشكل أفضل، أن نتناولها من زاوية مظهرها التواصلية (98)، ذلك أن قوانين التواصل هي قوانين الثقافة (99). إن هناك، إذن، تساوقا بين القوانين المنظمة للتواصل والقوانين المنظمة للثقافة. بل يمكن القول إن قوانين التواصل هي قوانين ثقافية. ومن جهة ثانية، فإن قوانين الأنساق السيميوطيقية هي قوانين ثقافية.

هكذا يبدو أن كل كيان ثقافي يمكنه أن يكون ظاهرة سيميوطيقية (100) وأن الثقافة يمكنها أن تُدرَس جميعها من جهة نظر سيميوطيقية (101) لأن كل ظاهرة ثقافية عبارة عن وحدة دلالية (102) أو لأن المدلول وحدة ثقافية.

وبذلك تُقلب فرضية ساير وورف Sapir-Worf. فنحن لا نصوغ العالم وفق عالم اللغة، أي أن اللغة لا تحدد نظرة الانسان الى العالم إلا جزئيا. وإنما يُنَمَّج الانسان صورة العالم من خلال ثقافته المتنوعة، أي أن إنتاج المعنى خاضع لمقومات ثقافية.

وبناء على هذا التصور، فإن السيميوطيقا هي العلم الذي يُعنى بدراسة الظواهر الثقافية باعتبارها عمليات تواصلية. وبالتالي، فإنه يمكن للظواهر الثقافية — ويجب عليها — أن تصير موضوعات للتواصل. ومن ثمة تعود كل ظاهرة ثقافية، بالضرورة، الى السيميوطيقا. وإذا كانت السيميوطيقا تُعنى بالثقافة في شموليتها، وكانت العلوم تُعنى بظواهر خاصة من سيميوطيقا الثقافة، فإن السيميوطيقا تشمل مختلف العلوم وترادف الى حد ما، الايستيمولوجيا.

وإذا كانت تلك هي السيميوطيقا كما فهمها يوري لوتمان وأتباعه وأمبرطو إيكو، فإن روسي لاندي يذهب في تحديده للسيميوطيقا إلى أبعد من ذلك انطلاقا من أبعاد البرمجة. وأبعاد البرمجة، عنده، ثلاثة هي :

- 1 — أنماط الانتاج (مجموع قوى الانتاج وعلاقات الانتاج)،
- 2 — الادبيولوجيات (تخطيطات اجتماعية لشمط عام)
- 3 — برامج التواصل (التواصل اللفظي وغير اللفظي)

Eco. la structure absente P.28 (98)

(99) نفسه. ص 30

(100) نفسه. نفس الصفحة.

(101) نفسه. نفس الصفحة.

(102) نفسه. ص 28

وتجد السيميوطيقا، في نظره، موقعها الخاص ودلالاتها وأساسها على امتداد دراسة أنماط الانتاج والايديولوجيات داخل محيط البرمجة الاجتماعية لكل السلوكات (103). وهكذا، تنتمي دراسة البعد الأول الى تعرية الاقتصاد البورجوازي، وينتمي هذا البعد، بعد استيلاء البروليتاريا على السلطة، الى تخطيط الانتاج الاشتراكي. أما دراسة البعد الثاني فتنتهي الى نظرية الايديولوجيات المدركة بوصفها تخطيطات اجتماعية تعتمد على أنماط الانتاج وتتغير تبعا لتغيرها، إلا أنه يتعين عليها، في نفس الوقت، أن تنفصل عن أنماط الانتاج من خلال العديد من التوسطات وتعود، علاوة على ذلك، لتفعل في أنماط الانتاج ذاتها. وبخصوص البعد الثالث الذي يعد توطئة بين البعدين الأولين ويجعل من الممكن، من بين أشياء أخرى، تأثيرهما المتبادل، فإنه بدون يتعذر على البعدين الأولين أن يوفرنا لنا وصفا تاما للبرمجة الاجتماعية للسلوك الاجتماعي ذلك أن هذه البرمجات هي التي تتحكم في التواصل اللفظي أو غير اللفظي (104).

ومثل هذا التصور يركز على علاقة الدليل بالسياسي. ويبدو أن المسلمة الثابتة لهذا التحليل تكمن في كون «نظرية الدليل تستلزم نظرية المجتمع، ونظرية المجتمع تستلزم نظرية الدليل» (105). وإذن، فلا بد من أن تناسب جدلية الدليل المادية التاريخية والجدلية. فداخل نظرية السلطة، لا يمكن للغة (ولا لأي نسق دال كيفما كان) إلا أن تكون خاضعة للسلطة: إما مع السلطة وإما ضدها، وعليه فلا بد من بناء علاقة ضرورية بين السياسي واللساني (والسيميوطيقي) (106).

ولقد سبق لروسي لاندي أن رأى أن السيميوطيقا بوصفها علما شاملا للدليل وللتواصل (اللفظي وغير اللفظي) ومهما كان المجال المدروس ينبغي أن تُعنى مباشرة لا بالتبادل وتطوراتها، بل ينبغي أن تُعنى أيضا بالانتاج والاستهلاك، لا بقيم التبادل الدلالية فحسب، بل بقيم الاستعمال الدلالية أيضا. ومن الواضح أن قيم التبادل الدلالية لا يمكنها أن توجد بدون قيم الاستعمال الدلالية، وأن قيم الاستعمال الدلالية لا يمكنها أن تتجسد بدون قيم التبادل الدلالية. وبالتالي، فالسيميوطيقا لا يمكنها أن تُعنى فقط بالطريقة التي تُتبادل بها البضائع والنساء باعتبارها رسائل، لأنها ينبغي أن تُعنى، أيضا، بالطريقة التي تم بها إنتاج هذه الرسائل (= البضائع والنساء) واستهلاكها (107). ويتصور روسي لاندي أن ليست هناك اختلافات في

Rossi-landi. linguistics and Economics P. 203 (103)

(104) نفسه ص 202 — 203

Meschonnic. le signe et le poème P. 248 (105)

(106) نفسه. ص 249

(107) نقلا عن Rey. Théories du signe et du sens. II. P. 319

البعد بين النشاط الدلالي — الاقتصادي والنشاط الدلالي — اللفظي (108)، فماركس Marx خلق سيميوطيقا الاقتصاد، وينبغي أن تكون سيميوطيقاه هي النموذج. وهكذا، فاللغة التي يُعنى بها السيميوطيقي هي لغة علاقات العمل والتبادل والانتاج والاستهلاك باعتبارها هي الواقع. وبذلك تكون العلاقات الانسانية هي لغة الواقع. غير أن هذه اللغات، كما بين ذلك ميشونيك Meschonnic في دراسته لسيميوطيقا ماركس (109)، خادعة ومُضللة إذ تتعارض مع الواقع ومع معرفة الواقع، إنها لغات كاذبة ومنافقة وواهمة، بل هي النفاق المؤسسي. ولأن اللغة هي لغة السلطة فهي تكذب مثلما تكذب السلطة. غير أن اللغة تفضح وتعري أيضا، إنها تفضح ذاتها حالما تتواجه مع الوقائع. وإذن، فاللغة تقوم بوظيفتين متناقضتين: فهي، من جهة، تتكلم ونجعلها تتكلم عن نفسها لاختفاء الأشياء؛ وهي، من جهة ثانية، لغة الأشياء ذاتها. وبهذا المعنى ترادف اللغة (أو الدليل) الوعي والايديولوجيا والمحتوى.

إن نظرية الدليل تجد نفسها تنسج علاقة مع الاقتصاد ذلك أنها نظرية إنتاج المعنى وتوزيعه وتبادله واستهلاكه. ولا تصف هذه النظرية غير نظام التضليل وغياب الواقع لأن الدليل يبقى فارغا ومتخيلا. وبهذا تُحقق لغة البضاعة سيميوطيقا ملموسة وسيميوطيقا خاصة للاقتصاد والسياسي. وإذن، فإن الوقائع التي تتكلم لا تعين إخبارا صادقا إلا حينما تكون لغتها سيميوطيقة.

بهذا المعنى تكون السيميوطيقا تعرية للايديولوجيا ونقدا لها وفضحا للبرمجة الاجتماعية للسلوك الانساني. إن السيميوطيقا علم ينتقد ميتافيزيقيا الدليل ويحرر الدليل من الاستيلاء ويكشف عن الاخبار الصادق وبينيه ويخلق المعنى المنفلت من إيسار الايديولوجية. بذلك تكون هذه السيميوطيقا إنسانية المنزوع باعتبارها نظرية الانسان والتاريخ.

7. السيميوطيقا ومسألة المرجع

يمكن أن ننظر الى المقاربات السابقة لقضايا السيميوطيقا وقضايا الدليل باعتبارها مختلفة. فمن مقارنة تقتصر على الدال والمدلول ومقاربة ثانية تضيف الى ذلك الايديولوجيا والعالم والمجتمع الى مقارنة تعطي موقعا للشيء. ولقد لعب المنطقة وفلاسفة اللغة، على وجه الخصوص، دورا كبيرا في تحديد هذا الشيء وإيجاد وضع له داخل الدليل خاصة وأن موضوع التواصل، في عمومته، هو الواقع الخارج لساني.

ومن المعلوم أن اللسانيات لم تذكر المرجع إلا لتعبره مجالا ينبغي إبعاده. ولم تلجأ اللسانيات، وبالتالي السيميوطيقا، إلى مشكلة الاحالة إلا تحت تأثير المنطقة وفلاسفة اللغة. وقد ظهرت هذه المشكلة الى الوجود بجانب قضايا التداولية وفعل القول.

(108) نفسه. ص 320

(109) انظر الصفحات 261 — 273 من كتاب Le signe et le poème

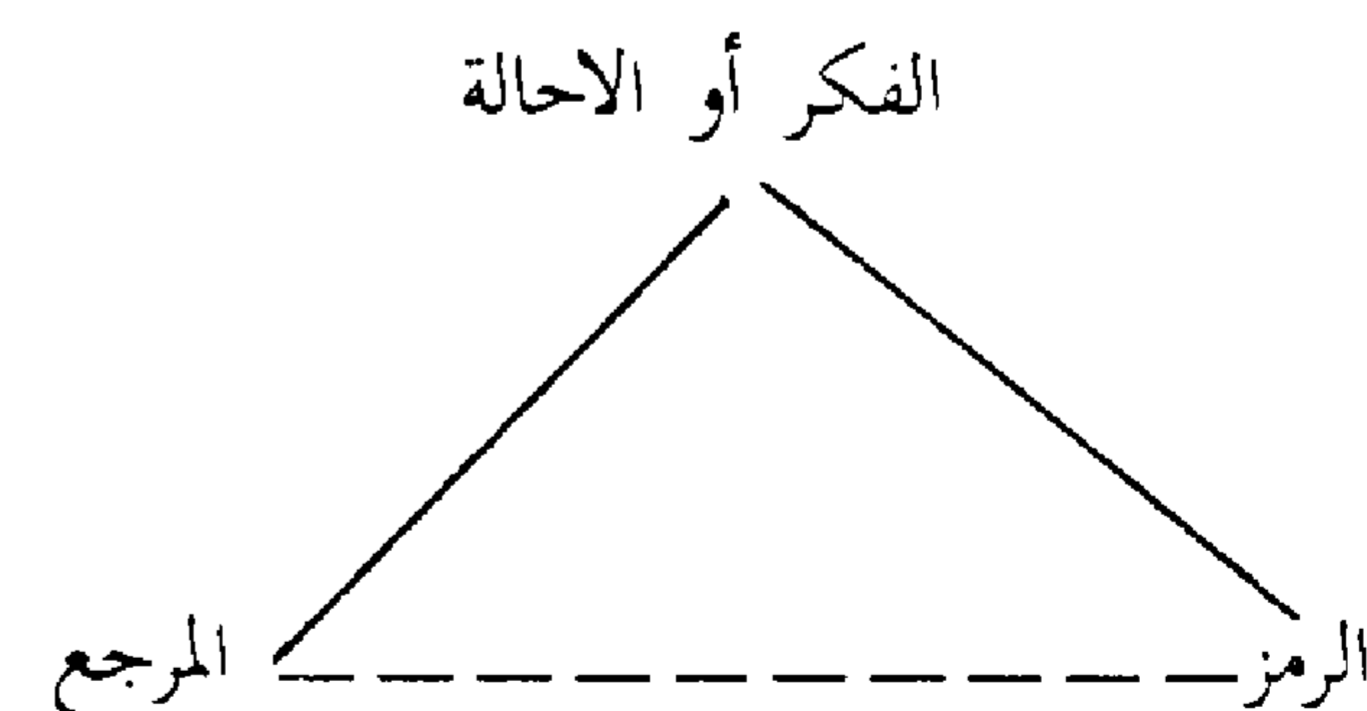
أما تشالز موريس Charles Morris فيرى أن العناصر الثلاثة للسيميوزيس يمكن أن تسمى على التوالي الدليل — الناقل sign vehicle (أي العنصر الذي يشغل بوصفه دليلاً) والمعين designatum (أي العنصر الذي يحيل عليه الدليل) والمؤول (أي الأثر الناتج على الشخص الشارح). ويضيف تشالز موريس إلى هذه العناصر الثلاثة عنصراً رابعاً هو الشخص الشارح interprète (115). غير أنه يميز المعين عن الموضوع له denotatum. فإذا كان الشيء الذي تحيل عليه موجوداً بالفعل، فإن موضوع الاحالة يسمى بالموضوع له denotatum، أما معين الدليل فهو نوع الأشياء التي يطبق عليها الدليل أي الأشياء التي تتوفر فيها الخاصيات التي يأخذها الشخص الشارح بعين الاعتبار بواسطة حضور الدليل — الناقل (116).

وبخصوص كارناب Carnap الذي ينطلق من المعينات designateurs (وهي الجمل الخبرية والتعابير الفردية والوحدات المحمولىة) فهو يرى أن معينين إذا كانا متعادلين (أي إذا كانا كاذبين معاً أو صادقين معاً)، فإننا نقول إن لهما نفس الماصدق extension، وإذا كانا، بالإضافة إلى ذلك، متعادلين منطقياً (والتعادل المنطقي يعني أن تعادل المعينين — وتعادلهما لاغير — ينبثق من القواعد الدلالية وحدها)، فإننا نقول بأن لهما، أيضاً، نفس المفهوم intension... ويعتبر كارناب قيمة صدق الجملة (صدقها أو كذبها) بوصفها ما صدقاً في حين يعتبر القضية التي تعبر عنها الجملة بوصفها مفهوماً (117).

بل إن مبحث المرجع لم يقف عند هذا الحد. ذلك أن ستراوسون Strawson قد عمل على توسيعه وانفتاحه على التجربة الحياتية المعيشة حتى صار المفهوم مفضياً إلى التداولية. لقد عالج ستراوسون المشاكل المرتبطة ارتباطاً وثيقاً بمشاكل الاحالة مثل مشكل الذكر la mention ومشكل صدق التقريرات assertions وكذبها ومشكل الاقتضاء présupposition ومشكل العلاقات بين الخطاب والعالم الواقعي. فإذا تلفظت بجملة «كان نابوليون أعظم جندي فرنسي»، فأنا أستعمل كلمة «نابوليون» لأذكر شخصاً مخصوصاً، إلا أنني لا أستعمل المركب «أعظم جندي فرنسي» لذكر شخص ما، وإنما أستعمله لأقول شيئاً عن شخص سبق لي أن ذكرته. فمن الطبيعي القول إنني باستعمالي لهذا المركب أتحدث عن نابوليون وأن ما أقوله عنه هو أنه كان أعظم جندي فرنسي. لكن، يمكنني، بطبيعة الحال، أن أستعمل تعبير «أعظم جندي فرنسي» لذكر شخص ما، مثلاً: «أعظم جندي فرنسي مات في المنفى». وهكذا، فإن بعض التعابير... يمكن أن تكون لها استعمالات أخرى غير تلك

لقد سبق لكوتلوب فريج Gottlob Frege، في القرن التاسع عشر، أن ميز الاحالة عن الدلالة، فالمعنى Sinn، عنده، يناسب، على وجه التقريب، القيمة السوسيرية بينما يعني Bedeutung «التعيين» désignation أو الوضع dénotation أو الاحالة référence. ويبدو من الطبيعي، في رأي فريج، أن نربط بدليل ما، بالإضافة إلى ما يعينه والذي يمكن تسميته بالوضع dénotation، ما يود تسميته معنى Sens (sinn) الدليل. فتعيين «نجمه المساء» و «نجمه الصباح» هو نفس التعيين، أي أنهما يقدمان نفس الاحالة المنطقية، إلا أن المعنى يختلف (110). والعلاقة بين الدليل ومعناه ووضعه تكمن في كون المعنى يناسب الدليل وكون وضع معين يُناسب المعنى، بينما يمكن لوضع مفرد (شيء واحد) أن يقبل أكثر من دليل (111). أما التمثيل représentation المترابط مع دليل ما، فينبغي أن يتميز عن وضع هذا الدليل وعن معناه. فإذا كان دليل ما يعين شيئاً قابلاً لأن يدرك بواسطة الحواس، فإن تمثيلي عبارة عن قائمة داخلية مكوّنة من تذكر الانطباعات المحسوسة وردود الفعل الخارجية والداخلية التي خضت غمارها (112). ويرى فريج أن لكل جملة أو لكل قضية معنى وتعييناً، وبشكل هذا التعيين وحدة استبدالية ذات طرفين لاغير: الصدق والكذب أي ما يسميه بقيمة صدق القضية valeur de vérité. وعليه، فإن مسألة الاحالة ترتبط بالصدق أو الكذب لأن قيمة الصدق ليست المعنى بل هي الشيء (113).

أما أوكدن Ogden وريتشاردز Richards فقد أدجما المرجع في تعريفهما للدليل ليدلاً به على أي شيء أو على مجموعة من الأشياء الموجودة في العالم الخارجي. بينما استعملنا «الاحالة» ليعنيا بها المفهوم الرابط والوسيط بين الكلمة (أو التعبير) والمرجع (114):



(110) نقلًا عن Rey. Théories du signe et du sens. II. P. 74

(111) نفسه ص 75

(112) نفسه ص 76

(113) نفسه ص 78 — 79

(114) نفسه ص 112 — 113

(115) نفسه ص 82 وانظر أيضا N°35 fondements de la théorie des signes in langages

(116) Rey. Théories du signe et du sens. II P.83

(117) نفسه ص 85

التي يقوم ستراوسون بدراستها (118). وإذا تلفظت بجملة «ملك فرنسا ملك حكيم»، فإنه لا أحد سيقول إن الجملة المتلفظ بها جملة غير دالة. وسيواقف الجميع على أن الجملة دالة. إلا أن الجميع يعرف أنه لا وجود في الوقت الحاضر لملك بفرنسا. ولذلك وجب القيام بالتمييزات التالية :

- (أ 1) جملة
- (أ 2) استعمال جملة
- (أ 3) فعل قول جملة ما.
- كما ينبغي، بموازاة ذلك، القيام بالتمييزات التالية :
- (ب 1) تعبير
- (ب 2) استعمال تعبير
- (ب 3) فعل قول تعبير ما

آنذاك يمكن أن نتخيل أن الجملة قد قيلت في فترات مختلفة منذ القرن السابع عشر. إننا أمام نفس الجملة الواحدة، إلا أن هناك اختلافات جلية بين مناسبات استعمال هذه الجملة أو اختلافات في الاستعمال إذ قد تكون صادقة في استعمال وكاذبة في استعمال آخر. ومن الممكن ألا يكون الاستعمال مختلفا وتكون أفعال القول مختلفة. إننا حينما نستعمل تعبير «ملك فرنسا» فإنه يمكن أن نقول، في هذه الحالة، إننا نستعمل التعبير للذكر شخص معين أو للحالة عليه. إلا أن الذكر أو الاحالة عبارة عن خاصية لاستعمال التعبير، وهكذا فإن الصدق والكذب خاصيتان لاستعمال الجملة (119).

ويبدو من الضروري تسجيل الفروقات التالية : الدلالة عبارة عن وظيفة للجملة أو التعبير؛ والذكر والاحالة وكذلك الصدق والكذب عبارة عن وظائف استعمال الجملة أو التعبير. فاسناد دلالة إلى جملة يعني إعطاء التوجيهات العامة حول استعمالها (120). إن التعبير في ذاته لا يحيل على أي شيء. وهناك فرق بين ما أعنيه ودلالة التعبير المستعمل. والمتكلمون هم الذين يعنون شيئا ما لا التعابير. فنحن نستعمل التعابير للحالة على أشياء خاصة، أما دلالة التعبير فليست مجموع الأشياء أو الشيء الخاص الذي يحيل عليه التعبير حينما يُستعمل استعمالا صحيحا. إن الدلالة هي مجموع قواعد استعمال التعبير وعادات هذا الاستعمال وتعاقداته في الفعل الاحالي. ومن الأكيد أن معرفة الدلالة لا علاقة لها مع معرفة استعمال مخصوص للجملة قصد الحديث عن أي شيء (121).

Etudes de logique et de linguistique P.10 (118)

(119) نفسه ص 15 — 17

(120) نفسه ص 18

(121) نفسه ص 20

ويؤكد ستراوسون الأهمية الكبرى التي يحظى بها سياق فعل القول ويعني به الزمان والمكان وهوية المتكلم والمواد التي تشكل مركز المنفعة المباشر والتاريخ الشخصي لكل من المتكلم والمخاطب (122). وبالتالي، فإن التجربة الحياتية المعيشة هي التي تشكل الحقل المرجعي وأن الشيء المدرك لا يكفي أبدا لتحديد المرجع.

وامتدت مباحث المرجع لتطال بعض التعابير المخصصة في اللغات خاصة مع التداولية وفعل القول. فقد توقف بنفنيست عند الضميرين «أنا» je و«أنت» tu وسماهما بالاشاريين indicateurs (123) معتبرا إياهما «دليلين فارغين» غير مرجعين بالنظر الى الواقع، وغير قابلين لأن «يُمَلّا» إلا حينما يستعملهما المتكلم في كل عملية من خطابه (124). وبالطبع، فإن الاشارات تتجاوز هذين الضميرين فتميز الاشارات المكانية indicateurs spatiaux مثل : هذا، ذاك، هنا...؛ عن الاشارات الزمانية indicateurs temporels مثل : الآن، اليوم، أمس، غدا... (125). ويقوم دور هذه الاشارات ب «توفير وسيلة للتخاطب conversation الذي يمكن تسميته بتخاطب اللغة في الخطاب (126). ويسمى بنفنيست هذا التخاطب بفعل القول : «إن فعل القول هو تشغيل اللسان من قبل فعل فردي استعماليا (127).

وتجدر الإشارة في هذا الصدد الى أن ياكوبسون (128) يسمي هذه الاشارات بالمتغيرات Shifters والروابط embrayeurs. وقد أعطيت لهذه التعابير تسمية أخرى هي المبهمات déictiques.

وفي نفس السياق، اعتبر بول ريكور Paul Ricœur أن الضمائر غير دالة asémiques، فكلمة «أنا» je لادلالة لها في ذاتها (129)، إلا أن كبريات أوريكشيوني C.Kerbrat-Orecchioni ترى أن فكرة كون المبهمات لا معنى لها أو أن معناها يتنوع بتنوع المقامات فكرة غير منسجمة ذلك أن ما يتغير مع المقام هو مرجع الوحدة المبهمة unité déictique لا معناها الذي

(122) نفسه ص 29

(123) Problèmes de linguistique générale. I. P.253

(124) نفسه ص 254

(125) نفسه ص 253

(126) نفسه ص 254

(127) Problèmes de linguistique générale. II. P.80

(128) Essais de linguistique générale P. 176

(129) Métaphore vive P. 98

يبقى ثابتاً من استعمال الى آخر (130). وبذلك فإن تعريف المبهات لصيق بتعريف الاحالة (131) أو أن إحالتها لا تتحدد إلا بمعرفة سياق استعمالها.

أما ايلوار Eluerd فيحصر فئة المبهات، انطلاقاً من ثلاثية الدليل عند بورس، في **الدلائل — القوانين الأمارية الخيرية** حيث تكون نسختها أمانة فرعية أصيلة (132).

ولقد حظيت أسماء الأعلام بنفس الاهتمام نظراً لما تثيره من مشاكل دلالية. إن أسماء الأعلام موضوعة denotent وغير موحية sans connoter ذلك أنها تخلو من أية دلالة (133)، فيما يرى أنصار النظرية الوصفية أن لها معنى من حيث إن الاسم العلم يوحى بشبكة من الخصائص المجموعة في نفس المرجع مثل الزهرة Venus، أما الوصف المحدد description définie، فإنه يوحى بخاصية معينة للمرجع مثل «نجمة الصباح» (134).

وفي هذا الباب يميز كرييك S. Kripke المعين العارض désignateur accidentel الذي لا يعين نفس الشيء في كل العوالم الممكنة، مثل : كان على رئيس الجمهورية أن يكون على اليمين، عن المعين الصارم rigide الذي لا يتغير وضعه dénotation مهما كان العالم المأخوذ بعين الاعتبار، مثل : كان على ميران Mitterand أن يكون على اليمين (135).

والآن، كيف يمكن أن ننظر الى قضية المرجع والاحالة ؟ هل استطاعت، منذ أوكدن وريتشاردز، أن تحل مشكل الدلالة ؟

يعتقد أمبرطو إيكو أن الاخلال الكبير والأخطر الذي ألحقته وتلحقه خطاطة أوكدن وريتشاردز — بالإضافة الى الاخلال الذي يقترح أن علاقة الدلالة تستلزم، قبل كل شيء، ثلاثة كيانات — هو ذلك الاخلال الذي يقضي بإدامة الفكرة القائلة بأن لمدلول طرف علاقة مع الشيء الذي يحيل عليه الطرف. ذلك أن المرجع هو، بالفعل، الشيء الذي يسميه الرمز. أما الاحالة فهي شيء أكثر غموضاً. ولقد عرّف أولمان Ullmann (1962) الاحالة باعتبارها الاخبار الذي ينقله الاسم الى «المتلقي» (136). أما فريج، فيرى فيها «المعنى» Sinn في تعارضه مع المرجع الذي هو «التعيين» Bedeutung. والمعنى هو «الطريقة التي يُقدّم إلينا وفقها الشيء»، والتعيين هو الشيء الذي يحيل عليه الشيء. وحسب مثال لراسل Russel : فإن والترسكوت Walter Scott ومؤلف «وافرلي» «Waverley» عبارة عن شكلين دالين

L'énonciation de la subjectivité dans le langage P.36 — 37 (130)

(131) نفسه ص 40

La pragmatique linguistique P.70 (132)

J.S Mill in Récanati. la sémantique des noms propres : remarques sur la notion de (133)

«désignateur rigide» in langue française N°57 P. 106

(134) نقلاً عن la pragmatique linguistique P.140

(135) نفسه. ص 140 — 141

la structure absente P.59 — 60 (136)

لهمانفس التعيين إذ يحيلان على نفس الكائن الانساني، إلا أن لهما معنيين لأنهما يقدمان نفس الشيء وفق مظهرين مختلفين (137).

ويلاحظ أمبرطو إيكو أن هذا المنظور للمدلول موجود في ثنايا التفكير المعاصر حول الدلائل سواء في التعارض بين الموضوع له والمعين عند تشارلز موريس، أو في التعارض بين الماصدق والمفهوم في الفكر المنطقي، أو في التعارض بين الوضع والايحاء عند ستيوارت ميل Sturt Mill، أو بين الوضع والمعنى عند راسل وشاف schaff وغيرهم. ويرى أمبرطو إيكو أن المعنى عند البعض (بلومفيلد Bloomfield) يتطابق مباشرة مع الموضوع له (بمعنى التعيين)، وأن الموضوع له عند البعض الآخر، يبقى هو الشيء الذي يحيل عليه الدليل، أما المعنى meaning فيقترب أكثر فأكثر مما يسميه فريج بالمعنى Sinn (أولمان، أنطال Antal، كوين Quine، الخ...). إلا أن المشكل ليس هو مشكل وضع المدلول بوصفه معنى Sinn، وإنما هو مشكل إقصاء فكرة «التعيين» Bedeutung من كل مبحث سيميوطيقي بوصفه بقية تحول دون فهم الطبيعة الثقافية لسيرورة الدلالة (138).

ويتبي، من ذلك، أمبرطو إيكو إلى أن ربط إثبات دليل بشيء يحيل عليه يخلق مشكلين لا جدوى من ورائهما : أ — مشكل إخضاع قيمة الدال السيميوطيقية لقيمة صدقه؛ ب — مشكل وجوب تحديد الشيء الذي يحيل عليه الدال الشيء الذي يفضي الى استغلاق شامل. وإذا عدنا الى (أ —) فإن إحدى عثرات السيميوطيقا قد كانت، على الدوام، هي تحديد مرجع الكلمات مثل وحيد القرن أو القنطور التي لا تناسب مبدئياً أي شيء موجود. ومن الأكيد أنه يمكننا أن نؤكد أن شيء الدليل ليس بالضرورة شيئاً فيزيقياً وإنما يمكن أن تشكل علاقة منطقية وخاصة وسيرورة. إن فريج قد اعتقد أن التعيين Bedeutung يجب أن «تدركه الحواس». ويمكن، بدون شك، لمفهوم المرجع كهذا أن يُستعمل في العلوم الطبيعية حيث يجب التأكد من كل إثبات حول الواقع بواسطة إجراءات تجريبية وحيث يجب الحكم عليه بالصدق أو الكذب (أي هل يناسب المرجع أولاً يناسبه). إلا أن هذا اللجوء الى المرجع لا يساعدنا أبداً إذا كنا نود فهم كيفية اشتغال دليل ما، وسيجعلنا، أكثر من ذلك، نفهم كيف يشتغل المرجع. وهناك حل آخر معهود يكمن في القول بأن الأمر يتعلق بألفاظ لا مرجع لها وإنما لها إحالة. وإذا كان هذا الجواب مُرضياً من جهة نظر منطقية، فإنه غير ذلك من جهة نظر سيميوطيقية، أو أن الجواب إذا كان مُرضياً فلأنه يبين أنه باستطاعتنا أن نستغني عن المرجع حيناً نود مناقشة مدلول لفظة ما. (139).

(137) نفسه ص 60

(138) نفسه. نفس الصفحة

(139) نفسه. ص 60 — 61

وكما يصرح بذلك أمبرطو إيكو، فإنه لا يؤكد عدم وجود أقوال نزع إلى إسناد قيمه «صادق» أو «كاذب» إليها حينما نقارنها بالأحداث الواقعية التي نعرفها من خلال تجربتنا. وبالإضافة إلى ذلك، فإنه لا يؤكد أن متلقي الرسالة لا يحيل هذه الرسالة على «الأشياء» التي يتكلم عنها أو التي نتكلم عنها إذا افترضنا أننا نتكلم عن أشياء. فالذي يتلقى الرسالة التالية: **إن منزلك يحترق يفكر، بدون شك، في منزله** وسيعمل على التأكد من صدق القول حتى ولو تعلق الأمر بأستاذ السيميوطيقا الذي يقاسمنا نفس الاحتراس من المرجع. إلا أن هاتين الواقعتين لا صلة لهما بمجال السيميوطيقا لأنها تدرس الشروط المتحركة في التواصل وفهم الرسالة فحسب (تسنيين وفك السنن). إن الأسباب التي تجعل من الرسالة ذات معنى لا تتعلق بكون المتلقي يملك منزلا وأن هذا المنزل يحترق. إن المشكلة السيميوطيقية هي مشكلة تبادل علامات، هذا التبادل الذي يؤدي إلى سلوك معين مستقل عن صدق التقرير أو كذبه... (140).

وفي حديثه عن مثالين يرى إيكو أنه ينبغي أن نسجل من جهة نظر سيميوطيقية ما يلي: (أ) إن ثقافتنا تحتوي على أنواع سننية تجعل من جملة: **مات نابوليون بسانت هيلين في 5 ماي 1821** جملة مفهومة وتوحي بـ «صدق تاريخي»، (ب) إن المجتمع الاغريقي الكلاسيكي يحتوي على أنواع سننية تجعل من الجملة التالية: **غزا أوليس مملكته مجددا بعد ما قتل المطالبين بالعرش** جملة مفهومة وتوحي بـ «صدق تاريخي». وكون الجملة الثانية موحية بـ «خرافة» سيمائل، على المستوى السيميوطيقي، الواقعة التي يمكن أن تحدث في حضارة قادمة، حيث سنقتنع، اعتمادا على وثائق ما تزال مجهولة (أو كاذبة)، بأن نابوليون قد مات في مكان آخر وفي تاريخ آخر (أو أنه لم يوجد أبدا). وهذا ما دفع بأمبرطو إيكو إلى القول بأن السيميوطيقا لا تهتم بالدلائل إلا باعتبارها قوى اجتماعية. وهكذا، فإن مشكلة الكذب المهمة عند المناطقة هي مشكلة قبل — سيميوطيقية أو بعد — سيميوطيقية.

فعوض أن نقول إن «نجمة المساء» موضوعة إزاء «شيء» ما فيزيقي كبير وذو شكل دائري ينتقل في الفضاء على بعد العديد من ملايين الكيلو مترات من الأرض كما يرى كوين Quine، فإنه علينا أن نقول بأن هذا التعبير موضوع إزاء وحدة ثقافية مناسبة يحيل المتكلم نفسه عليها، وحدة ثقافية ورثها وفق شكل الثقافة التي يعيش فيها دون أن تكون له تجربة عن المرجع الواقعي. ذلك أن المنطقي وحده هو الذي يمكنه أن يعلم أن لها نفس تعيين Bedeutung تعبير «نجمة الصباح». أما الذي يبعث بهذا الدال أو الذي يتلقاه فيظن أنه إزاء شيئين مختلفين، وله الحق في ذلك لأن الأنواع السننية الثقافية التي يحيل نفسه عليها تحتوي على وحدتين ثقافيتين مختلفتين. فحياته الاجتماعية لا تجري على أساس الأشياء بل على أسس

الوحدات الثقافية أو بعبارة أفضل، فإن الأشياء بالنسبة إليه وبالنسبة إلينا، لم يتم التعرف عليها إلا من خلال الوحدات الثقافية التي يعمل عالم التواصل على ترويجها بدل ترويج الأشياء (141). وإذا صح ذلك، فإن أية محاولة لتحديد مرجع دليل معين تفرض علينا تعريف هذا المرجع بوصفه كيانا مجردا لا يغطي سوى تعاقد ثقافي. ويدعو أمبرطو إيكو، في الأخير، إلى اعتبار مفهوم المرجع مفهوما غير ذي جدوى بالنسبة للسيميوطيقا ومضر بها (142).

وبناء على مجموع هذه الانتقادات، يقدم أمبرطو إيكو مفهوما خاصا للوضع الذي يعني، عنده، الاحالة المباشرة التي يثيرها لفظ ما في متلقي الرسالة. ولأنه لا يرغب في اللجوء إلى حلول «ذهنية» «mentalistes»، فإن الوضع ينبغي أن يكون الاحالة المباشرة التي يسند لها السنن إلى اللفظ في ثقافة معطاة. ويعتقد أمبرطو إيكو أن مفهوم الوضع هذا يمكن أن يعادل مفهوم الماصدق بالمعنى الذي يوضع فيه اللفظ فحسب بإزاء طائفة الوحدات الثقافية التي تحتل موقعا معطى في حقل دلالي معين بدل أن يوضع بإزاء طائفة الأشياء الواقعية. ويسمى هذا المدلول الوضعي بالمعنى sense من قبل لاينس Lyons. إلا أن المدلول لا يمكن أن يُحدد، في كل الحالات، إلا من خلال السياق وظرف التواصل (143).

وينبغي لهذا التعريف للوضع أن يكون قادرا على أن يطبق أيضا على ثلاث فئات من الدوال التي تسلم، عادة، إلى سلسلة من الاستغلاقات الدلالية: أ — الألفاظ الضوابط syncatégorimatiqes؛ ب — أسماء الأعلام، دوال الأنساق السيميوطيقية التركيبية الصرف غير المالكة لشخانة دلالية مثل الدوال الموسيقية.

وهكذا، ففيما يخص الضوابط، فإنه من الممكن تشكيل حقل دلالي للألفاظ التي لا تحيل نفسها على أشياء خارجية والتي تقوم بوظائف نحوية. إن الألفاظ مثل: هو، لي أو مع ذلك توضع لتحديد موقعها في حقل وظائف نحوية ممكنة. فهي، بهذا المعنى، توضع لوحدة ثقافية محددة...

أما مشكل أسماء الأعلام فهو قريب من مشكل هذه الدلائل الأيقونية التي تحيل نفسها على شخص ما دون أن يوضع سنن محدد لتعيين بمن يتعلق الأمر (مثلا، الصور الفوتوغرافية لأشخاص مجهولين). فلو تلقى المرء الرسالة التالية Stefano، فإنه يملك «كفاءة» يتقاسمها مع العديد من الأشخاص من معارفه. وتحتوي هذه الكفاءة على وحدات ثقافية تشمل والديه وأصدقائه، فيكون الدال stefano موضوعا بشكل مباشر بإزاء ابنه. وهذا يعني أنه يحدد موقعا داخل نسق معين.

(141) نفسه ص 62

(142) نفسه ص 63 — 64

(143) نفسه ص 87 — 88

إن عالم أسماء الأعلام عالم فقير إلى حد ما. لسانيا حيث يتكاثر المشترك اللفظي Homonymie، إلا أن العالم الدلالي للوحدات الثقافية غني نوعا ما وكل وحدة تحدد داخله من قبل أنساق تعاضدية جد محددة (144). وينبغي أن نقبل بأن أسماء الأعلام المتعلقة بأشخاص مجهولين توحى connotent إلا أنها ليست وضعية (ils ne dénotent pas) (145).

أما مصطلح الإيحاء فيعطيه أمبرطو إيكو معني يجعله يغطي العديد من الظواهر. فهو مجموع الوحدات الثقافية التي يمكن لتعريف مفهومي intensionnelle للدال أن يشعلها؛ ومن هنا فهو مجموع كل الوحدات الثقافية التي يمكن للدال أن يثيرها، مؤسسيا، في ذهن المتلقي. وهذه الإيحاءات متنوعة نذكر، من بين ما ذكره أمبرطو إيكو، الإيحاءات الأيديولوجية والانفعالية والبلاغية الأسلوبية... الخ (146).



يمكن القول إن سوسير، من خلال تعريفه لدورة الكلام، قد أوحى بأن الدليل عبارة عن أداة تواصلية بين شخصين يهدفان، عن قصد، إلى التواصل. الشيء الذي جعل أنصار سيميولوجيا التواصل يعتبرون أن موضوع السيميولوجيا هو الأدوات التواصلية القصدية، فكانت الدلائل الاعتبارية هي التي توفر مثل هذا الشرط المعرفي. إلا أن سوسير، من خلال تعريفه للدليل؛ يكون قد أوحى بسيميولوجيا الدلالة. فكان أن رأى بارط أن كل الأشياء تدل وأنها تُستخدَم للتواصل مهما كانت طبيعة الدلائل وسواء توفرت القصدية أم لم تتوفر. وبذلك تكون السيميولوجيا هي العلم الذي يدرس مختلف الدلائل — التي توسع مفهومها — كيفما كانت العلاقة بين الدوال والمدلولات. وقد نهل الاتجاهان معا من اللسانيات البنيوية مع توظيف لمفاهيمها الأساسية التي خضعت مع بارط، لنوع من التوسيع والتعديل كي تستوعب الظواهر الدالة في اختلافها.

وإذا كانت سيميولوجيا التواصل تُقْصِي من موضوعها العديد من الظواهر باعتبارها لا تكون أصنافا من الدلائل، وإذا كانت سيميولوجيا الدلالة تعتبر الكثير من الأشياء دلائل، فإن سيميوطيقا بورس توسع من موضوعها ليشمل مختلف الظواهر الطبيعية والثقافية والعلمية أي مختلف الأنشطة الرمزية عند الإنسان باعتبارها دلائل. وتصبح السيميوطيقا معه علما شاملا وعلما جامعا ومانعا، حتى امتزجت بالمنطق والايستيمولوجيا وكأنها صارت العلم الموحد بين مختلف العلوم. بل يمكن أن يُنْظَر إلى سيميوطيقا بورس وسيميوطيقا الثقافة

باعتبارهما نقدا للواقع وللعلم والأيديولوجيا. وبذلك تكون السيميوطيقا هي تعاون مجموعة من العلوم وتداخلها (المنطق والفلسفة وعلم الاجتماع وعلم النفس واللسانيات... الخ) من أجل خدمة الإنسانية لأنها تستهدف دراسة أوجه النشاطات والفعاليات الإنسانية في مظاهرها الدالة ودلالاتها الممكنة ماضيا وحاضرا ومستقبلا.

وإذا كان مجموع الثقافة عبارة عن تواصل ودلالة، وكانت السيميوطيقا هي العلم الذي يدرس التواصل وفهم الرسالة، فإن قضية المرجع لا ينبغي أن تدمج في السيميوطيقا لأن حياة الإنسان الاجتماعية لا تسير على قاعدة الأشياء وإنما تسير، على قاعدة الوحدات الثقافية باعتبار عالم التواصل يقوم بترويج الوحدات الثقافية لا بترويج الأشياء. فالإنسان لا يعيش في عالم الأشياء وإنما يعيش في عالم رمزي. والأشياء لا قيمة لها في ذاتها، وإنما قيمتها في المدلولات الثقافية التي يشحنها بها الإنسان.

(144) نفسه ص 88 — 89

(145) نفسه ص 90

(146) نفسه ص 91 — 94

الخاتمة

منذ تصور سوسير للسيمائيات، قطع هذا العلم أشواطاً علمية واسعة واخترق العديد من العلوم، بل إنه أعاد ترتيب العلاقات بينه وبين اللسانيات والايستيمولوجيا والفلسفة وعلم النفس وعلم الاجتماع والأكسيوماتيك.

لقد انتقلت السيمائيات من تبعيتها للسانيات إلى قيامها بجمع شمل العلوم والتحكم فيها، وأنتجت أدوات معرفية لمقاربة مختلف الظواهر الثقافية باعتبارها أنساقاً تواصلية ودلالات. ورغم أنها تبدو متعددة بحيث إن هذه الكلمة قد استعملت لتغطي ممارسات متنوعة، فإن لها وحدة عميقة تتجلى في كونها تنظر إلى مختلف الممارسات الرمزية للإنسان باعتبارها أنشطة رمزية وأنساقاً دالة. وبذلك أوجدت لنفسها موقعا ايستيمولوجيا شرعيا.

ولا يبدو أن السيمائيات تاريخاً واحداً. فهي لم تنشأ مع سوسير أو مع بورس. إذ تعود نشأتها إلى الفكر اليوناني مع كل من أرسطو وأفلاطون والرواقيين. إلا أن بدايتها تلك قد كانت عبارة عن أفكار متناثرة هنا وهناك تفتقر إلى إطار نظري تتساقط داخله. ومنذ تلك الفترة، لم يحل الفكر الإنساني المنطقي والفلسفي والبلاغي من عطاءات ذات بال. وضمن هذا الإطار تدرج عطاءات العرب القدماء. وقد بات من الضروري، بغية تطوير النظرية السيمائية وتأصيلها، العودة إلى مثل هذه النصوص القديمة بحثاً عن إيجاد الحلول المناسبة للمشاكل السيمائية القائمة.

المراجع الأجنبية

- BAKHTINE (M.) 1977 : Le marxisme et la philosophie du langage. Minuit. Paris.
- Barthes (R.). 1957. Mythologies. Seuil. Points. Paris
- Barthes (R.) 1964. Eléments de sémiologie in communications n° 4
- Barthes (R.) 1965. Eléments de sémiologie (à la suite de degré zéro de l'Ecriture) Denoël/Gonthier. Paris.
- Barthes (R.) 1967. Système de la mode. Seuil. Paris.
- Benveniste (E). 1966. Problèmes de linguistique générale. 1. Gallimard. Paris.
- Benveniste (E.) 1974. Problèmes de Linguistique générale. II. Gallimard. Paris
- Bruzy (C.) Burzlaff (W.) Marty (R.), Réthoré (J.) 1980. La sémiotique phanéroscopique de Charles S. Peirce in langages n° 58.
- Buyssens (E.) 1967. La communication et l'articulation linguistique. P.U.F. Paris
- Carontini (E.) 1984. L'action du signe. Cabay, Librairie-Editeur. Louvain — La — neuve
- Cassirer (E.) 1975. Essai sur l'homme. Minuit. Paris
- Charaudeau (P.) 1983. Eléments de sémiolinguistique. Hachette. Paris.
- Dascal (M.) 1978. La sémiologie de Leibniz. Aubier Montaigne Paris
- Deledalle (G.) 1979. Théorie et pratique du signe. Payot. Paris
- Derrida (J.) 1967. De la grammatologie. Minuit. Paris.
- Eco (U.) 1972. La structure absente. Mercure de France. Paris.
- Eco (U.) 1976. A theory of Semiotics. Indiana University Press.
- Eco (U.) et Pezzini (I.) 1982. La sémiologie des Mythologies, in communications n° 36.
- Eluird (R.) 1985. La pragmatique Linguistique. Fernand Nathan. Paris.
- Granger (G.G.) 1979. Langages et épistémologie. Klincksieck. Paris
- Ivanov (V.), Lotman (Y.), Ouspenski (B.), Piatigorski (A). Toporov (V.) 1974. Thèses pour l'étude sémiotique des cultures in Recherches Internationales à la lumière du Marxisme n° 81
- Jakobson (R.) 1963. Essais de linguistique générale. Minuit. Points. Paris.
- Kerbrat-Orecchioni (C). 1980. L'énonciation de la subjectivité dans le langage. Armand Colin. Paris.
- Lekomtsev (Y.K.) 1976. Quelques fondements de la sémiotique générale in systèmes de signes, ouvrage collectif. Ed. complexe. Paris.
- Lotman (I.) 1973. La structure du texte artistique. Gallimard. Paris.
- Lyons (J.) 1978. Eléments de Sémantique. Larousse. Paris.
- Magalhães (Th. Calvet de) 1981. Un, deux, trois catégories fondamentales, Cabay, librairie-Editeur. Louvain — La — neuve.
- Meschonnic (H.) 1975. Le signe et le poème. Gallimard Paris.
- Morris (C.) 1974. Fondements de la théorie des signes in langages n° 35.
- Nef (F.) 1980. Note sur une argumentation de Peirce (à propos de la valence verbale) in langages n° 58.
- Peirce (C.S.). 1978. Ecrits sur le signe. Seuil Paris.
- Prieto (L.J.) 1968. La sémiologie in le langage. Ouv. collectif. Encyclopédie de la pléade. Gallimard. Paris.
- Prieto (L.J.) 1975. Pertinence et pratique. Minuit. Paris.
- Récanati (F.) 1983. La sémantique des noms propres. Remarques sur la notion de « désignateur rigide » in langue française n° 57.
- Rey (A) 1976. Théories du signe et du sens. II. Klincksieck. Paris.
- Ricoeur (P.) 1975. Métaphore vive. Seuil. Paris.
- Rossi-Landi (F). 1977. Linguistics and Economics. Mouton-the hague. Paris.
- Saussure (F.de) Cours de linguistique générale. Payot. Paris.
- Savan (D.) 1980. La sémiotique de Charles S. Peirce. in langages n° 58.
- Strawson (P.F.) 1977. Etudes de logique et de linguistique. Seuil. Paris.
- Szepe (G.) et Voigt (V.) 1974. Alternatives sémiologiques. In recherches internationales à la lumière du marxisme, n° 81.
- Thom (R.) 1974. Modèles mathématiques de la morphogenèse. 10-18. Paris.
- Veron (E.) 1980. La sémiologie et son monde. in langages, n° 58.